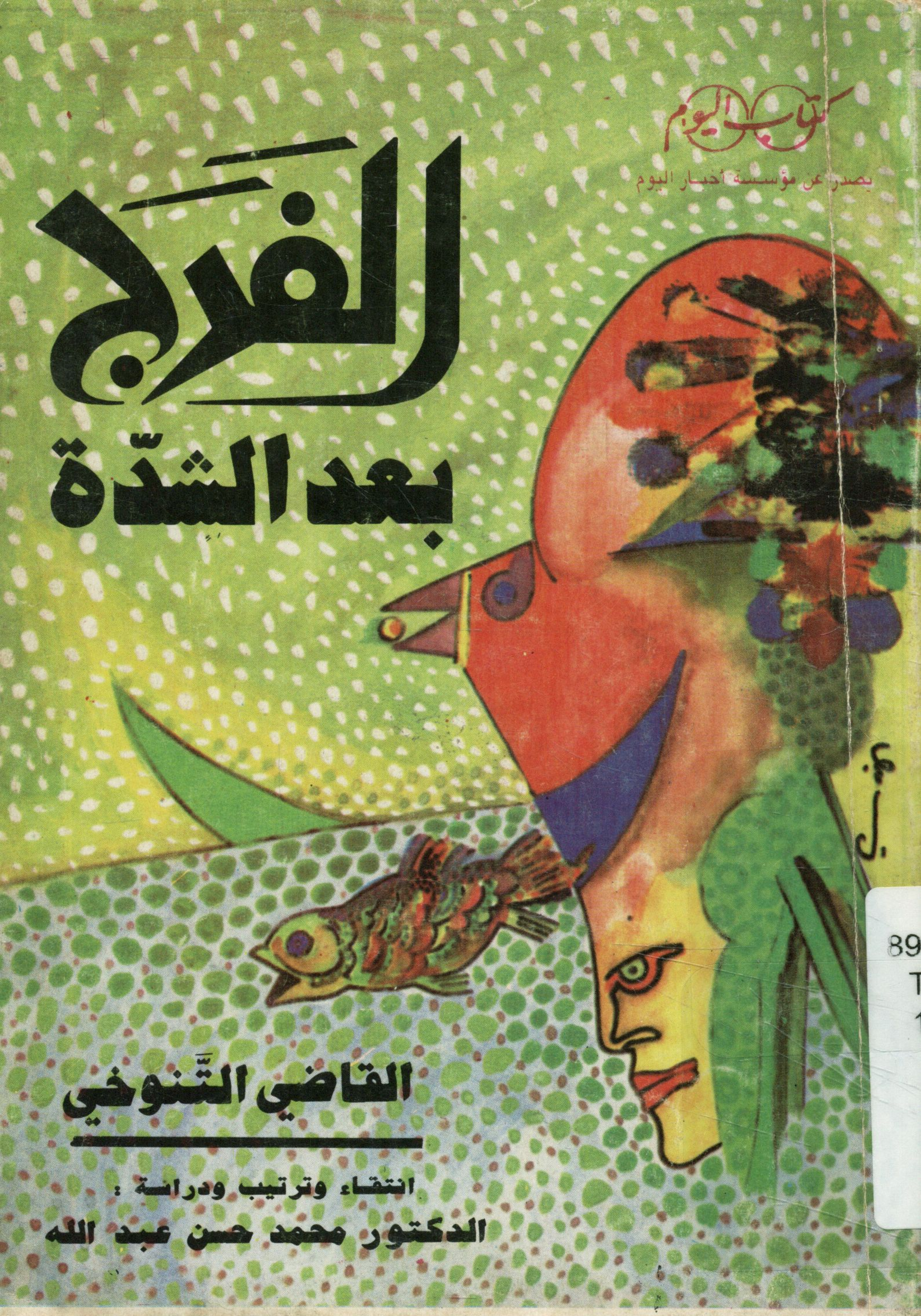

كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم
الفرج
بعد الشدة
القاضي التنوخي
انتقاء وترتيب ودراسة :
الدكتور محمد حسن عبد الله



القاضى التَّنوخى

الفرج بعد الشدة

انتقاء وترتيب ودراسة

الدكتور محمد حسن عبد الله

المشرف على التحرير : جمال الغيطانى

• العدد ٣٣٤ • أكتوبر ١٩٩٠ •

كتاب اليوم

أنشأه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الادارة

سعيد سنبل

العدد ٣١٤ ربيع أول ١٤١١ هـ

أكتوبر ١٩٩٠ م

تشرين أول

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشـــتراكات

جمهورية مصر العربيه

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصرى،

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربي والافريقى ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله باقى دول العالم واوربا والامريكيتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٦-١٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

الدولة	السعر	العملة
المغرب	٢٠	درهم
لبنان	١٥٠٠	ليرة
الأردن	٧٥٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٩٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس
سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
غـــزة	١٠٠	سنت
ج ليبية	١٠	ريالات
الصومال نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الامارات	٨	درهم
قطـــر	٨	ريالات
انجلترا	١٢٥	بنى
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	٥	مارك

فى الخارج

الدولة	السعر	العملة
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك وأنشطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الغلاف : محمود الهندى ● الماكيت : محمد عفت

■ من مقدمة المؤلف ■

قال الفقيه القاضي أبو علي المحسّن بن القاضيْ أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي رحمه الله تعالى :

أمّا بعد ، فإنّي لما رأيت أبناء الدنيا متقلّبين فيها ، بين خير وشرّ ، ونفع وضرّ ، ولم أر لهم في أيّام الرخاء ، أنفعَ من الشكر والثناء ، ولا في أيّام البلاء ، أنجعَ من الصبر والدعاء ، لأنّ من جعل الله عمره أطول من عمر محنته ، فإنّه سيكشفها عنه بتطوّله ورأفته ، فيصير ما هو فيه من الأذى ، كما قال من مضى :

الغمرات ثمّ ينجلينا ثمت يذهبن ولا يجينا

ووجدتُ أقوى ما يفزع إليه من أناخ الدّهر بمكروه عليه ، قراءة الأخبار الّتي تنبئ عن تفضّل الله عزّ وجل ، على من حصل قبله في محصله ، ونزل به مثل بلائه ومعضله ، بما أتاحه له من صنع أمسك به الأرماق ، ومعونة حلّ بها من الخناق ، ولطف غريب نجّاه ، وفرج عجيب أنقذه وتلافاه ، وإن خفيت تلك الأسباب ، ولم تبلغ ما حدث من ذلك الفكر والحساب ، فإنّ في معرفة الممتحن بذلك ، شحذ بصيرته في الصّبر ، وتقوية عزيمته على التسليم إلى مالك كلّ أمر ، وتصويب رأيه في الاخلاص ، والتفويض إلى من بيده ملك النواص ، وكثيراً ما إذا علم الله تعالى من وليّه وعبده ، انقطاع آماله إلاّ من عنده ، لم يكله إلى سعيه وجهده ، ولم يرض له باحتماله وطوقه ، ولم يخله من عنايته ورفقه .

وأنا بمشيئة الله تعالى ، جامع في هذا الكتاب ، أخباراً من هذا الجنس والباب ، أرجو بها انشراح صدور ذوي الألباب ، عندما يدهمهم من شدّة ومصاب ، إذ كنت قد قاسيت من ذلك ، في محن دفعت إليها ، ما يحنو بي على الممتحنين ، ويحدوني على بذل الجهد في تفريج غموم المكروبين .

■ تقديم ودراسة ■

القاضي الفنان

كتاب « الفرج بعد الشدة » ألفه القاضي التنوخي ، واسمه : المحسِّن بن علي . وقد ولد بالبصرة عام ٣٢٧ هـ ، وتوفي ببغداد عام ٣٨٤ ، وإذاً فقد عاش في صميم القرن الرابع الهجري ، الذي يعتبر قمة النضج والازدهار للثقافة العربية ، والفكر العربي في شتى اتجاهاته ، كما كانت البيئة العراقية المهاد التاريخي الذي تأصلت فيه الثقافة ، ووجد الفكر فرصته بما أتيح للعلماء والفلاسفة من حرية الحوار ، وحرية الترجمة ، وحرية التفكير ، بحماية عدد من الخلفاء البناة ، مثل الرشيد ، والمأمون ، والمعتصم . لقد نضجت الخمائر ، وانتهت المقدمات إلى نتائجها في القرن الرابع ، ولا يخطىء النظر علامات التسامح ، والإيمان بالحرية ، في كتاب « الفرج بعد الشدة » كما يلمح مظاهر القلق السياسي والاجتماعي والأمني . حين تراخت قبضة الخلافة نسبيا ، وظهر المغامرون والانفصاليون في مواقع شتى من الدولة المترامية .

■ ■ ■

التجربة الشخصية

سنشعر ـ حين نقرأ الكتاب ـ بالاندماج الحميم ، والتفاعل الحاد بين المؤلّف والحياة العامة فى عصره ، وقد لا يتفق هذا تماما مع العمل القضائى ، الذى يتطلب ـ فيما يتطلب ـ قدرا من العزلة ، عن الحياة العامة ، وعن أهل السلطان على السواء ، والتحلى بالوقار ، والتزام الجد فى الكتابة والحديث . ولم يكن هذا أو بعضه متحققا فى شخص المؤلف ، وقد ساقته أمواج حياته المتدافعة فى غير هذا الطريق ، بل إنه ورث صفاته هذه عن والده ، وكان قاضيا أيضا ، وقد وصف ابن خلكان هذا الأب القاضى بأنه كان إلى فقهه وقضائه أديبا ، وشاعرا ظريفا ، وأنه كان من ندماء الوزير المهلبى وسمّاره . لقد استثمر المحسِّن علاقات أبيه ، فأصبح قاضيا وهو فى صدر شبابه ، وكان على طباع أبيه كذلك ، إذ كان من جلساء عضد الدولة البويهى (توفى عام ٣٧٢ هـ) ولم يترك ملازمته إلاّ مكرها ، لموقف سنعرفه ، وكان عضد الدولة أديبا شاعرا ، وحاكمًا حازما ، ولهذا حوى مجلسه نخبة من الشعراء والأدباء ، وقد قدّم ياقوت الحموى وصفا لبعض مجالس السمر فى حضرة عضد الدولة ، دلّ على تنوّع ثقافة القاضى التنوخى فى الشعر والرواية والموسيقى ومعرفته بالتاريخ والنوادر .. إلخ ، وتدل مادة الكتاب الذى نحن بصدده على دراية بكل هذه العلوم والفنون ، ولكن ما يعنينا الآن أن مجلس عضد الدولة ، عند السمر ، كان فيه الغناء والشرب ، وكان القاضى يحضره ، دون أن يشرب . وخلاصة الأمر أنه كان يملك أخلاق الفنان ، وأنها غلبت فيه أخلاق القاضى ، وكانت عضويته فى حاشية الأمير الفارسى المتغلب ، تتجاوب وطبائع رجل المسامرة والفن ، أكثر مما تناسبَ القاضىَ أو الفقيه . لقد ذكر فى « الفرج بعد الشدة » قصة صاحب الشرطة الذى رفض أن يكون نديماً للخليفة ، لأن المنادمة تناقض طبعه وانضباط مهنته ، وقد تضايق الخليفة منه ، وجفاه بعض الوقت ، ولكنه ما لبث أن اقتنع ، وتقبل منه تفسيره الخاص . بعبارة أخرى : لو أن القاضى التنوخى لا يملك رغبة عميقة فى تذوق مباهج الدنيا ومشاهدة مسراتها ، ما استطاع عضد الدولة حمله على شهود مجالس سمره .

إننا لا نفكر فى إدانة أو تبرئة ، وكل ما نودّ قوله أن « الفنان » تَغلّب على « القاضى » وأن هذا يفسّر ما تحمل قصص « الفرج بعد الشدة » من دلالات وبراهين على اتساع الأفق ، والقدرة على الغفران ، والحدب على الضعف الإنسانى ، ورفض التزمت والعنف ، والميل إلى تبرير الخطأ والخطيئة ، أو إغفال المعنى الأخلاقى لها ، انسياقا مع الواقع ، وضرورة التعامل معه ، وهذا كله يؤكد امتلاء وجدانه بشعور الفنان ، واستنارة بصيرته ، حتى أن هذا كان يؤدى به ـ أحيانا ـ إلى الخروج عما شرط على نفسه فى عنوان كتابه ، « فالفرج » فى بعض الأخبار والقصص لا يحمل المعنى الروحى ، الدينى ، الأخلاقى ، لهذه الكلمة ، بقدر ما يحمل معنى المغامرة والخداع والغش والغصب . فكأن القاضى التنوخى يرى أن « الأخلاق » ليست شرطا للفن الجميل ، وأن « الوعظ » يفسد التصوير الأدبى ، كما يفسد الصدق الفنى . ولم يكن القاضى التنوخى بدعاً فى هذا الرأى ، لقد كان له مناصرون فى تاريخ الأدب العربى على امتداده ، ونذكر هنا الجاحظ ، وابن سلام ، وقدامة بن جعفر ، أقربهم زمنا للقاضى التنوخى .

■ ■ ■

سبب مباشر

من الطبيعي أن تكون هناك علاقة نفسية أو دافع خاص بين المؤلف ـ أي مؤلف ـ والموضوع الذى يختاره للكتابة . وميل القاضي التنوخي إلى رواية القصص والأخبار والنوادر ، يؤكده حجم الاهتمام في « الفرج بعد الشدة » كما يرسخه كتابه الآخر « نشوار المحاضرة » . ولكن الارتباط بالنسبة للكتاب الأول يتجاوز هذا الاتجاه العام إلى رواية النوادر ، إلى دافع خاص ، أو سبب مباشر ، جعله يختار قصصه وأخباره ونوادره محكومة بشكل فنى محدد : « الشدة » ، التى يعقبها « فرج » ؛ فقد كان يجتاز محنة ، طالت سنوات ، قاسى هولها ، صابرا ، ينتظر الفرج ، الذى تمهل ، وتدلل ، حتى وصل أخيرا . . وكان صاحبنا قد انتهى من تأليف كتابه ، الذى يمكن اعتباره إحدى الحيل النفسية لمواجهة الشدائد ، والصبر على المعاناة . الكتاب فى صميمه « حلم » بالفرج ، وتأكيد على أنه قادم ، و « تنفيس » عن قلق دفين ، وخوف من الاحتمالات . أما كيف انتهى رجل الحاشية ، القاضى الأثير لدى قاضى القضاة ، إلى هذا الموقف الصعب ، فهذا ما يكشف عنه « معجم الأدباء » :

فقد كان القاضى التنوخي إبان قربه من عضد الدولة قد توسط فى عقد مصاهرة بين الوزير الفارسى المتغلب ، والخليفة الطائع ، إذ تزوج الخليفة من ابنة الوزير . ولكنه ـ مع حبه لها ، وشغفه بها ـ تجنب احتمال أن ينجب منها ، تخوفا من تزايد المطامع الفارسية فى السيطرة على دولة الخلافة ، إذا ما أصبح ولى عهد الخلافة حفيدا لعضد الدولة !! لقد فطن عضد الدولة إلى ما يعنيه امتناع الخليفة عن معاشرة ابنته ، فحدّث القاضى التنوخي فى الأمر ، وحمّله رسالة إلى الخليفة ، على لسان والدة الصبيّة ؛ بأنها مستزيدة لإقبال مولانا ـ الخليفة ـ وإدنائه إياها .

لقد كان تكليف القاضى التنوخي بهذا الأمر منطقيا أو طبيعيا من وجهة نظر الوزير البويهى ، فهو وسيط الزواج ، ومن الطبيعى أن يكون مقدما أو مشاركا فى كل ما يترتب عليه . أما من وجهة القاضى ، فقد اعتبر نفسه فى موقف شائك يؤدى إلى الزلل لا محالة ، فمع حساسية « مضمون » الرسالة ، وأنه يتدخل فى علاقة زوجية ، فإنه يؤمن فى أعماقه أن حرص الخليفة على عدم الإنجاب من الفتاة الفارسية ، ابنة الرجل القوى المسيطر هو القرار الصحيح ، ثم إنه لا يطمئن إلى

ردّ الخليفة ، ولا إلى ردّ الفعل عند عضد الدولة ، لهذا قرر الانسحاب من المهمة ، غير أنه لم يكن يملك الاعتذار ، بل قال لعضد الدولة « السمع والطاعة » وغادر المجلس إلى داره ليلبس ثياب دار الخلافة ، ولكن مصادفة أليمة حدثت فى هذا الوقت بالذات ، فقد زلقت رجله ، والتوت ، وتورمت ، ورضت عظامه من الوقعة . وأرسل على الفور إلى عضد الدولة يخبره بما جرى ، ويعتذر عن عجزه عن القيام بأداء الرسالة . ولكن عضد الدولة عرف أنه متمارض ، وأنه يتهرب من تأييد موقفه ، ومن ثم أصدر أمره إلى القاضى بأن يلزم بيته ، وعزل من جميع مناصبه ، وصودرت أمواله . وهكذا نزلت المحنة ، واستحكمت الشدة .. وقد استمرت إلى وفاة عضد الدولة ، ثم جاء الفرج بعد ذلك .

■ ■ ■

الإطار الفكرى والروحى

إن المبدأ الفكرى والروحى الذى انطلق منه المؤلف ـ وقد تعرفنا على دافعه المباشر ـ هو أن الشدائد لا تدوم ، وأنه ما من شدّة إلّا ويعقبها فرج ، وما من عسر إلا وبعده يسر ، وما من معاناة إلّا وتنتهى بلطف ورحمة ربانية . وأساس هذا المبدأ هو الإيمان ، إيمان بالله سبحانه ، وقدره الغالب ، ولطفه بعباده . وهو سبحانه يسبب الأسباب ، فيجرى الفرج على يد عبد من عباده ، قد لا نتوقعه منه ، وقد تصنعه المصادفة البحتة ، أو ظواهر الطبيعة . . إلخ . ويمتدّ الأساس الغيبى الإيمانى القدرى ، إلى الاستقراء التاريخى ، الذى يبدأ بتاريخ الأنبياء ، ومعاناتهم والشدائد التى عارضهم بها أعداؤهم ، وكيف تبدّدت دائما ، وانتصرت دعوات الحق ، بمعجزة إلهية ، هى تأكيد أن الله سبحانه لا يتخلى عن عبده المؤمن ، وينصر الحق ولو كان الحق أعزل ، ويهزم الباطل وإن احتشد بكل سلاح . وتتداح القراءة التاريخية لتشمل ـ إلى جانب الأنبياء : العظماء والقادة والأثرياء والفقراء ، ممن جاء لهم ذكر فى التاريخ ، أو احتفظت لهم كتب الأدب بنادرة ، أو روى الناس عنهم بعض ما جرى لهم . وبهذا يتأكد أن رحمة الله غامرة ، وفرجه سبحانه لا يتخلى عمن استنصره ووقف ببابه ، حين يداهمه الكرب وتحيط به الشدائد .

ثم يأتى أساس ثالث ، بعد الإيمان بما وعد الله سبحانه « إن بعد العسر يسرا » واستقراء التاريخ والمشاهدة ، وهو حكم الطبيعة وحركة الحياة : إنه لا دوام لشىء ، الكون والفساد متلازمان ، متعاقبان ، فلكل شىء إذا ما تمّ نقصان ، ولهذا

من واجبنا ـ بالتأمل العميق ـ أن نغتبط عند احتكام الأزمة ، واشتداد الضائقة ، إذ ليس بعد الشدة إلّا الفرج « لأن انتهاء الشيء إلى حده (أي : أقصى ما يمكن) ناقل له عما كان عليه إلى ضده ، فتكاد المحنة ، بهذه القاعدة ، لاقترانها من الفرج بفسيح الرجاء ، وانتهاء الشدة منها إلى مستجدّ الرخاء ، أن تكون أحق بأسماء النعم » .

وينهي القاضي التنوخي الكشف عن أساس رؤيته عن الشدائد ، وانتهائها إلى ألطاف إلهية ، بتقرير الأساس الرابع ، والأخير ، ويمكن تسميته بالأساس السيكولوچي ، وهو يرى ـ من خلال الملاحظة والتحليل ـ أنه قبل « وقوع » الشدّة ، يكون هناك « توقع » لها ، وهو يريد من الإنسان ألا يكربه ، أو يربكه توقع الشدائد ، يريد أن يحرره من الخوف ، وبخاصة قبل حدوث ما يخيف فعلا ، وذلك منطلقا من تصور فلسفي ، وبصيرة نفسية . والتصوّر الفلسفي يحكم بأن توقع الشدّة ـ قبل وقوعها الفعلي ـ هو مجرد احتمال ، لا يرتفع إلى درجة المستحيل الوقوع ، ولا إلى المحتّم الوقوع ، فنسبة حدوث الشدّة ، تتساوي ونسبة عدم حدوثها . فلماذا يتعجّل الإنسان الغم ؟ ولماذا يسلم عقله وروحه لعذاب القلق والخوف ؟ وهنا تظهر أهمية الجانب السيكولوچي ، فإن الاستسلام للحزن والخوف ، والتسليم بالهزيمة ، قبل أن يحدث ما يستدعيها ، أو بعد أن تحدث ، هو تعطيل للعمل الإنساني ، وفكر الإنسان في التدبير وابتكار الحيلة للخلاص ، وهو تعطيل لجانب من الإيمان بوعد الله سبحانه لأهل الشدائد بأن رحمة الله قريب من المؤمنين .

★ ★ ★

إننا في تقديم هذه الصورة الانتقائية المختارة لكتاب « الفرج بعد الشدّة » حافظنا على التوجّه الفكري والروحي الخاص للمؤلف ، وأهدافه من وضع كتابه ، دون أن نرتبط بتبويبه أو تقسيماته داخل كل باب . لقد قسّم مادة الكتاب في أربعة عشر بابا : ما أنبأ الله تعالى به في القرآن من ذكر الفرج بعد البؤس والامتحان ـ ما جاء في الآثار ـ من بشّر بالفرج بفأل أو دعاء ـ من استعطف غضب السلطان ـ من خرج من حبس أو اعتقال ـ من بشر بالمنام ـ من نجا بالاتفاق (المصادفة) أو العمد ـ من عاين القتل ثم نجا ـ من شارف الموت بحيوان مهلك ، ثم نجا ـ من ناله بلاء المرض ، فعافاه الله تعالى ـ من امتحن من لصوص وقطاع طريق

فعوضه الله ـ من هرب واستتر ثم نال الأمن والسلامة ـ من نالته شدّة فى هواه ، ثم ملكه الله تعالى من يهواه ـ ما اختير من ملح الأشعار فى إطار ما سبق .

هذا هو منهج التنوخى فى تقسيم مادته ، التى حرص على إيرادها موثقة ، بالرواة ، والمصادر . وقد حذفنا سلسلة الرواة اختصارا ، وتوفيرا للجهد ، وأعدنا توزيع القصص فى خمسة فصول ، قد تكون أقرب إلى إدراك القارىء المعاصر ومفاهيم الأدب والنقد ، وتقسيمنا اجتهادى ، قائم على استنباط مغزى القصة ، التى قد تحمل أكثر من مغزى ، فنغلب أحدها على الآخر ، ولهذا جرت فصول هذا الكتاب على أساس :

١ ـ القصص الوعظية .

٢ ـ القصص الاجتماعية .

٣ ـ القصص الفنية .

٤ ـ القصص الشعبية .

٥ ـ القصص السياسية .

واخترنا أهم ما فى الكتاب من قصص ونوادر وأخبار ، فى إطار منطلقات المؤلف ، وما نرى أن نضعه أمام القارىء ، والأديب المعاصر .

■ ■ ■

الشكل الفنى

مع أن القاضى التنوخى يعرف أنه لا يقدم كتابا علميا ، ولا يوثق معلومات تاريخية ، فإنه حرص على تصدير كل قصة ، أو خبر ، أو حكاية ، أو نادرة ، بسلسلة من الأسماء الذين رووها أو كتبوها قبله . لعله بهذا كان يتصدى لما لاقى فن الحكاية والقصة العربية من إهمال ، من أسبابه أنها تروى بالمعنى ، وليس باللفظ ، وهذا يعنى أن صورتها اللغوية الجمالية غير موثقة ، ومن التجاوز الاهتمام بها اهتماما علمياً تحليلياً .

مهما يكن من أمر ، فإن كتاب « الفرج بعد الشدّة » يعد من الاختيارات المحدّدة ، أو المحكومة بالشكل الفنّى ، وهذا أمر نادر ؛ فهو لم يحشد القصص والنوادر أيًا كان شكلها أو مرماها ، ولم يحتكم إلى المضمون وحده مثل الجاحظ في « البخلاء » مثلا ، ولكنه احتكم إلى الشكل ، فكل قصة تبدأ بشدّة . . تتطور ، وتستحكم ، ثم تنتهى إلى فرج ، وهذا يعنى ـ بالمعنى الأرسطى ـ أنه يحدث تحوّل

فى الفعل أو الموقف ، ويعنى بمصطلحات فن القصة القصيرة أن الشدّة بعدها الفرج تساوى : الأزمة ، ثم يأتى الحلّ !!

لم يفرق القاضى التنوخى بين القصة ذات الإيحاء الواقعى الاجتماعى ، والحكاية الشعبية أو « الحدوتة » والخبر التاريخى عن عصور سلفت ، والنادرة الطريفة التى لم تتشكل أو ترقى بتركيبها إلى مستوى القصة ، وعناوين فصوله تدل على ذلك . والتقسيم الذى أخذنا به حاول أن يضع حدودا بين هذه المستويات من الأداء الحكائى . ومع هذا فمادة الكتاب ، والأشكال الأدائية التى تقوم عليها هذه المادة تتجاوز حجم ما اخترنا ، كما أن القراءة الاجتماعية للكتاب ، تعطى صورة للمجتمع العربى وعلاقات طبقاته ، وصراعاته ، ومشكلاته ، هى أصدق ، وأدق مما كتب المؤرخون عن عصر المؤلف .

إن تأكيد عنصر المفاجأة وارد فى جميع القصص ، وهو عنصر انقلابى ، تتحول به الشدّة إلى فرج ، أو تنتهى به الأزمة إلى حل . وهو أحياناً حلّ توفيقى ، أو مصادفة ، أو إلهى ، وهذا كله مقبول عند المؤلف كما أنه مشاهد فى الحياة ، ولكنه فى أحيان أخرى حل بشرى ، بل هو دائما حل بشرى ، يصل إلى النجاة ، أو يحاولها ، ثم يأتى تمام المكافأة بلطف الله ورحمته ، التى تتسع للجميع ، حتى للخطاة ، والمنحرفين !!

★ ★ ★

لقد تعددت طرائق تشكيل المادة القصصية ، بما يدل على سبق الفن القصصى العربى إلى اكتشاف أساليب للقصّ ، نظنها من مبتكرات عصرنا ، أو من اختراع غيرنا ؛ فقد عرف القصة داخل القصة ، وتلتقى القصتان فى النهاية عند مغزى واحد ، وهذا فن أصيل فى الحكاية العربية ، وقبل أن يعرف « المسرح داخل المسرح » بأكثر من ألف عام ، كما نجد قصصا يتولى تقديمها أكثر من راوية ، ثلاثة أو أربعة أحيانا ، على أن يقوم كل واحد بتقديم الجانب الذى رآه ، أو المرحلة التى شارك فى صنعها ، ويتكون من مجموع ذلك حكاية متماسكة كاملة ، وقصصا أخرى متحاورة . . يقدمها أكثر من راوية ، لكنها لا تتكامل ، بل تتعارض ، أو تتحاور ، بحيث نجد الفعل الواحد يخضع لتفسيرين أو ثلاثة ، مع ثبات نهاية الفعل ، أو تحدد أثره . ولن تكفى هذه الإشارة ، فهذا الجانب يستحق عناية خاصة ، يستحقها أيضا الجانب اللغوى الذى صيغت به القصص . إن فكرتنا

العامة عن لغة القرون السالفة ، أو لغة التراث بأنها مصطنعة متقعرة ، هى فكرة ناقصة ، وحكايات هذا الكتاب مكتوبة بلغة الحياة ، لغة هذه الشخصيات التى قامت عليها هذه الحكايات ، من خلفاء ، ووزراء ، وقادة ، وكتاب ، وتجار ، وجوار ، وغانيات ، ولصوص ، وخدم وغلمان ، من عرب ، وفرس ، وروم . من معاصرين للمؤلف ، وسابقين عليه بزمن طويل أو قصير .

وهكذا نجد تعبيرات مثل : عيلتى ، ستى (فى المستوى الشعبى) وعائلتى ، وسيدتى عند الطبقة العالية ، أو حين يروى تاريخاً ، ومثل : أتذكر أيامنا الأوله ؟ - وتجينى برأسه - فوطه - هأنذا أجى (أى أحضر) - ضرب درابزين السرير - مزيّن - فشّ القفل . . إلخ . كما نجد المصطلحات المهنية بين الفنانين (أو من نسميهم بهذا فى زماننا) واللصوص ، ونجد الكنايات اللطيفة (كما فى زماننا أيضاً) فلا يسأل أحدهم من المهذبين : هل عندكم نبيذ ؟ ! وإنما يقول : « عندك شىء من ذلك الفن » ؟ !

ويدخل فى البناء اللغوى للقصة استخدام الحوار ، وما من قصة فى الكتاب إلاّ والحوار يشكل فيها أساسا هاما ، إنه ليس مجرد عبارات متبادلة تؤدى إلى معلومات . إن الحوار يكشف أصلا عن طوايا المتحاورين ، وخفايا نفوسهم ، ويعبر فى لغته وتركيبه ، وعلاقة العبارات المتبادلة بين المتحاورين ، وطاقة الذكاء التى يملكها كل منهم . . إننا نجد قصصا أجمل ما فيها ما انطوت عليه من حوار ، حيث تتجلى الموهبة الحقيقية للعقل العربى ، فى سرعة استجابته ، وتلقائيته ، وقدرته على إصابة المرمى فى كلمات قليلة ، وإسكات المكابر أو المخالف من خلال الصدمة ، أو السقطة ، أو التناقض .

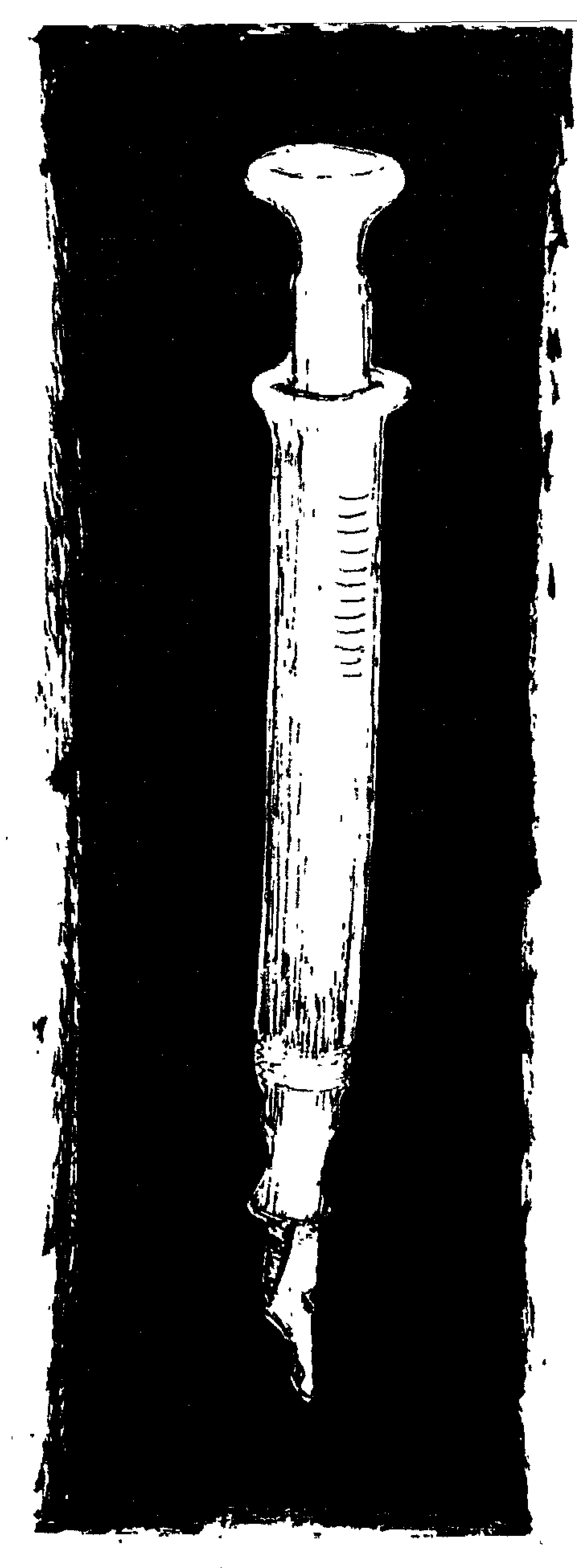
★ ★ ★

إننا نضمّن هذه المحاولة دعوة إلى المهتمين بالتراث ، وبتأصيل أدبنا المعاصر على أسس من الموروث ، بأن نطير الغبار عن تراثنا القصصى الحكائى بصفة خاصة ، ونقدمه بشكل انتقائى يقربه إلى القارىء . . ونأمل أن نكرر مثل هذا العمل فى القريب إن شاء الله .

■ ■ ■

د. محمد حسن عبد الله
القاهرة ١٩٩٠


■ الفصل الأول ■
القصص الوعظية



● رسم : حسام السكرى

آية للحماية

حدّثنا إبراهيم بن رباح ، قال : حدّثنا أبو عبد الله أحمد ابن أبي دؤاد ، قال : حدّثنا الواثق ، قال : حدّثنا المعتصم :

أنّ قوماً ركبوا البحر ، فسمعوا هاتفاً يهتف بهم ، من يعطيني عشرة آلاف دينار حتى أعلّمه كلمة ، إذا أصابه غمّ ، أو أشرف على هلاك ، فقالها ، انكشف ذلك عنه .

فقام رجل من أهل المركب ، معه عشرة آلاف دينار ، فصاح : أيّها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ، وعلّمني .

فقال : ارم بالمال في البحر ، فرمى به ، وهو بدرتان فيهما عشرة آلاف دينار .

فسمع الهاتف يقول : إذا أصابك غمّ ، أو أشرفت على هلكة ، فاقرأ : ﴿ ومن يتّق الله ، يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ، إنّ الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكلّ شيء قدراً ﴾ .

فقال جميع من في المركب للرجل : لقد ضيّعت مالك .

فقال : كلّا ، إنّ هذه لعظة ما أشكّ في نفعها .

قال : فلمّا كان بعد أيّام ، كسر بهم المركب ، فلم ينج منهم أحدٌ غير ذلك الرجل ، فإنّه وقع على لوح .

فحدّث بعد ذلك ، قال : طرحني البحر على جزيرة ، فصعدت أمشي فيها ، فإذا بقصر منيف ، فدخلته ، فإذا فيه كلّ ما يكون في البحر من الجواهر وغيرها ، وإذا بامرأة لمْ أر قطّ أحسن منها .

فقلت لها : من أنت وأيّ شيء تعملين ها هنا ؟

قالت : أنا بنت فلان بن فلان التاجر بالبصرة ، وكان أبي عظيم التجارة ، وكان لا يصبر عنّي ، فسافر بي معه في البحر ، فانكسر مركبنا ، فاختطفت ، حتّى حصلت في هذه الجزيرة ، فخرج إليّ شيطان من البحر ، يتلاعب بي سبعة أيّام ، من غير أن يطأني ، إلّا أنّه يلامسني ، ويؤذيني ، ويتلاعب بي ، ثم ينظر إليّ ، ثم ينزل إلى البحر سبعة أيّام ، وهذا يوم موافاته ، فاتّق الله في نفسك ، واخرج قبل موافاته ، وإلّا أتى عليك .

فما انقضى كلامها حتى رأيت ظلمة هائلة ، فقالت : قد والله جاء ، وسيهلكك .

فلما قرب منّى ، وكاد يغشانى ، قرأت الآية ، فإذا هو قد خرّ كقطعة جبل ، إلاّ أنّه رماد محترق .

فقالت المرأة : هلك والله ، وكفيت أمره ، من أنت يا هذا الذى منّ الله علىّ بك ؟

فقمت أنا وهى ، فانتخبنا ذلك الجوهر ، حتى حملنا كلّ ما فيه من نفيس وفاخر ، ولزمنا الساحل نهارنا أجمع ، فإذا كان الليل ، رجعنا إلى القصر .

قال : وكان فيه ما يؤكل ، فقلت لها : من أين لك هذا ؟

فقالت : وجدته ها هنا .

فلما كان بعد أيّام رأينا مركباً بعيداً ، فلوّحنا إليه ، فدخل ، فحملنا ، فسلّمنا الله تعالى إلى البصرة ، فوصفت لى منزل أهلها ، فأتيتهم .

فقالوا : من هذا ؟

فقلت : رسوُل فلانة بنت فلان .

فارتفعت الواعية [1] ، وقالوا : يا هذا لقد جدّدت علينا مصابنا .

فقلت : اخرجوا ، فخرجوا .

فأخذتهم حتى جئت بهم إلى ابنتهم ، فكادوا يموتون فرحاً ، وسألوها عن خبرها ، فقصّته عليهم .

وسألتهم أن يزوّجونى بها [2] ، ففعلوا ، وحصّلنا ذلك الجوهر رأس مال بينى وبينها . وأنا اليوم أيسر أهل البصرة ، وهؤلاء أولادى منها .

---

١ - الصراخ والبكاء على الميت .

٢ - أراد واضع الحكاية أن يحتفظ برموز العفة سليمة ، فهذا الشيطان البحرى احتفظ بالفتاة عذراء (غير انه يتلاعب بها) أما الرجل التقى الذى دفع ثروته نظير آية كريمة ، فإنه صاحب الفتاة حتى طلب من اهلها أن يزوجوه منها .

دعاء للخلاص

قال : لي المعلّى بن أيّوب :

أعنتني [1] الفضل بن مروان ، ونحن في بعض الأسفار وطالبني بعمل طويل يعمل في مدّة بعيدة ، واقتضانيه في كلّ يوم مراراً ، إلى أن أمرني عن المعتصم بالله أن لا أبرح إلاّ بعد الفراغ منه .

فقعدت في ثيابي ، وجاء الليل ، فجعلت بين يديّ نفّاطة [2] ، وطرح غلماني أنفسهم حولي ، وورد عليّ همٌّ عظيم ، لأنني قلت : ما تجاسر على أن يوكّل بي إلاّ وقد وقف على سوء رأي فيّ من المعتصم .

فإنّي لجالس ، وذقني على يدي ، وقد مضى الليل ، وأنا متفكّر ، فحملتني عيناي ، فرأيت كأنّ شخصاً قد مثل بين يديّ ، وهو يقول : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفيةً ، لئن أنجانا من هذه ، لنكوننّ من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كلّ كرب ﴾ .

ثم انتبهت ، فإذا أنا بمشعل قد أقبل من بعيد ، فلما قرب منّي كان وراءه محمد ابن حماد دنقش صاحب الحرس ، وقد أنكر نفّاطتي ، فجاء يعرف سببها ، فأخبرته خبري .

فمضى إلى المعتصم ، فأخبره ، فإذا الرسل يطلبوني ، فدخلت إليه ، وهو قاعد ، ولم يبق بين يديه من الشمع إلاّ أسفله .

فقال لي : ما خبرك ؟ فشرحته له .

فقال : ويلي على النبطيّ ، يمتهنك ، وأيّ يدٍ له عليك ، أنت كاتبي ، كما هو كاتبي ، انصرف .

فلما ولّيت ، ردّني ، واستدناني ، ثم قال لي : تمضي مديدة ، ثم ترى فيه ما تحبّ .

قال : فانصرفت ، وبكّرت إلى الفضل على عادتي ، لم أنكر شيئاً .

---

١ ـ الإعنات : التضييق والاضطهاد . وكان الفضل ـ وهو وزير المعتصم ـ يضطهد المعلى . وهو كاتب الخليفة كما سيظهر .

٢ ـ النفاطة : المصباح المضاء بالنفط .

الإنشراح

وأمّاالخبر في : ألم نشرح لك صدرك ، فإنّ أبا بكر ابن شجاع ، المقرىء البغدادي ، الذي كان يخلفني على العيار في دار الضرب بسوق الأهواز ، في سنة ستّ وأربعين وثلثمائة ، وكان خازن المسجد الجامع بها ، وكان شيخاً محدّثاً ثقةً نبيلاً ، من أمناء القاضي الأحنف وهو محمد بن عبد الله بن عليّ بن محمد. ابن أبي الشوارب ، حدّثنا بإسناد له ذكره ، لم أحفظه ، ولا المتن بلفظه ، وبُعْدَ عن يدي إخراجه من الأصل ، وقد تحرّيت مقاربة اللّفظ بجهدي ، ولعلّه يزيد أو ينقصَ :

أنّ بعض الصالحين ، ألحّ عليه الغمّ ، وضيق الصدر ، وتعذّر الأمور ، حتى كاد يقنط ، فكان يوماً يمشي ، وهو يقول :

أرى الموت لمن أمسى على الذلّ له أصلح

فهتف به هاتف ، يسمع صوته ، ولا يُرى شخصه ، أو أُرِيَ في النوم أنا الشاكّ - كأنّ قائلاً يقول :

ألا يا أيّها المرء . الذي الهمّ به برّح
إذا ضاق بك الأمر ففكّر في ألَمْ نَشْرَح

قال : فواصلت قراءتها في صلاتي ، فشرح الله صدري ، وأزال همّي وكربي ، وسهّل أمري ، أو كما قال :

وحدّثني غيره بهذا الخبر ، على قريب من هذا ، وزادني في الشعر :

فإنّ العسر مقرون بيسرين فلا تبرح[1]

---

١ - في سورة الانشراح تكرر العسر مرتين بال المعرفة ، وتكرر اليسر (نكرة) مرتين . وإذا تكررت المعرفة كانت هي الأولى بذاتها ، اما النكرة فتكون غير الأولى . وهذا معنى أن العسر في السورة واحد . واليسر اثنان. ولن يتغلب واحد على اثنين .

الاستغفار طريق الفرج

إنّ أعرابياً شكى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام شدّة لحقته ، وضيقاً في الحال ، وكثرة من العيال .

فقال له : عليك بالاستغفار ، فإنّ الله تعالى يقول : استغفروا ربّكم ، إنّه كان غفّاراً . . . الآيات .

فعاد إليه ، وقال : يا أمير المؤمنين قد استغفرت كثيراً ، وما أرى فرجاً مما أنا فيه .

قال : لعلّك لا تحسن أن تستغفر .

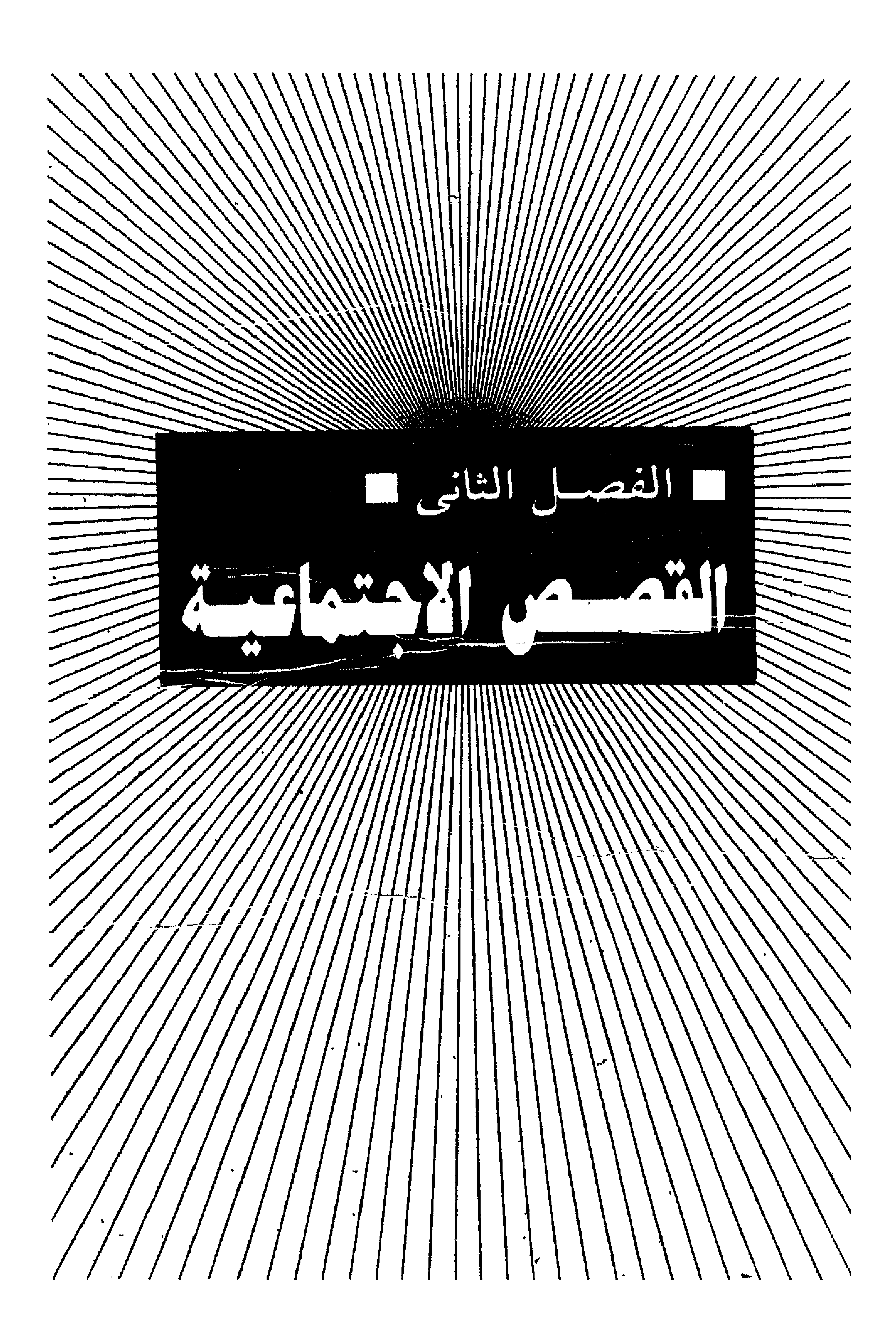
قال : علّمني .

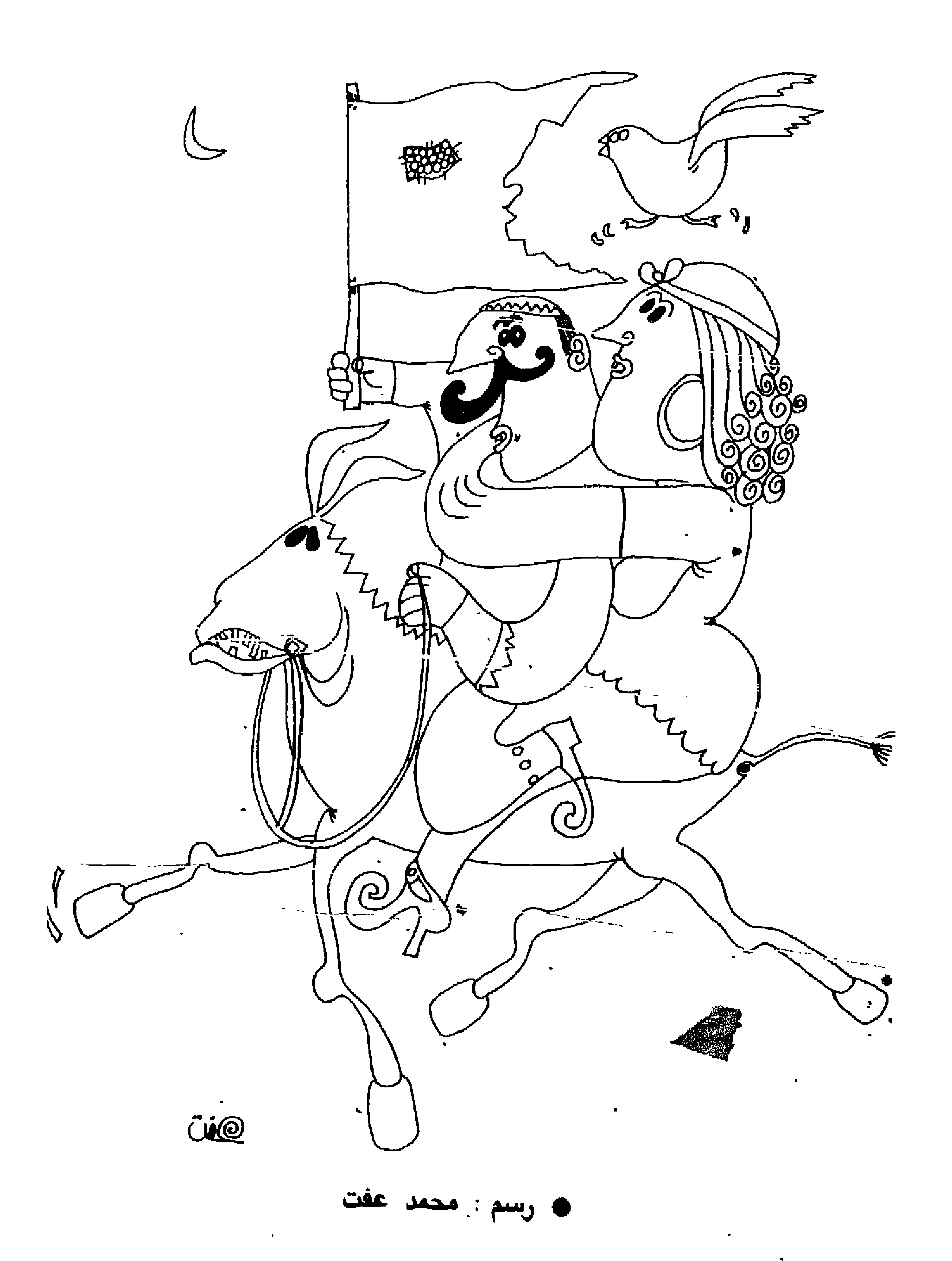
قال : أخلص نيّتك ، وأطع ربّك ، وقل : اللّهم إنّي أستغفرك من كلّ ذنب ، قوي عليه بدني بعافيتك ، أو نالته يدي بفضل نعمتك ، أو بسطت إليه يدي بسابغ رزقك ، أو اتّكلت فيه ، عند خوفي منه ، على أناتك ، أو وثقت فيه بحلمك ، أو عوّلت فيه على كرم عفوك ، اللّهم إنّي أستغفرك من كلّ ذنب خنت فيه أمانتي ، أو بخست فيه نفسي ، أو قدّمت فيه لذّتي ، أو آثرت فيه شهوتي ، أو سعيت فيه لغيري ، أو استغويت فيه من تبعني ، أو غلبت فيه بفضل حيلتي ، أو أحلت فيه عليك يا مولاي ، فلم تؤاخذني على فعلي ، إذ كنت ـ سبحانك ـ كارهاً لمعصيتي ، لكن سبق علمك فيّ باختياري ، واستعمالي مرادي وإيثاري ، فحلمت عنّي ، لم تدخلني فيه جبراً ، ولم تحملني عليه قهراً ، ولم تظلمني شيئاً ، يا أرحم الراحمين ؛ يا صاحبي عند شدّتي ، يا مؤنسي في وحدتي ، ويا حافظي عند غربتي ، يا وليّي في نعمتي ، ويا كاشف كربتي ، ويا سامع دعوتي ، ويا راحم عبرتي ، ويا مقيل عثرتي . يا إلهي بالتحقيق ، يا ركني الوثيق ، يا رجائي في الضيق ، يا مولاي الشفيق ، ويا ربّ البيت العتيق ، أخرجني من حلق المضيق ، إلى سعة الطريق ، وفرج من عندك قريب وثيق ، واكشف عنّي كلّ شدّة وضيق ، واكفني ما أطيق وما لا أطيق ، اللّهمّ فرّج عنّي كلّ همّ وكرب ، وأخرجني من كلّ غمّ وحزن ، يا فارج الهمّ ، ويا كاشف الغمّ ، ويا منزل القطر ، ويا مجيب دعوة المضطّر ، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها ، صلّ على خيرتك محمد النبيّ ،

وعلى آله الطيّبين الطاهرين ، وفرّج عنّى ما ضاق به صدرى ، وعيل معه صبرى ، وقلّت فيه حيلتى ، وضعفت له قوّتى ، يا كاشف كلّ ضرّ وبليّة ، ويا عالم كلّ سرّ وخفيّة ، يا أرحم الراحمين ، وأفوّض أمرى إلى الله ، إنّ الله بصير بالعباد ، وما توفيقى إلاّ بالله ، عليه توكلّت ، وهو ربّ العرش العظيم .

قال الأعرابى : فاستغفرت بذلك مراراً ، فكشف الله عزّ وجلّ عنّى الغمّ والضيق ، ووسع علىّ فى الرزق ، وأزال عنّى المحنة .

■ ■ ■


■ الفصـــل الثانى ■
القصــص الاجتماعيــة



● رسم : محمد عفت

ضيــاع !!

كان يصحبنا [على القرآن] ، رجل مستور صالح ، يكنى أبا أحمد ، وكان يكتب كتب العطف [1] للناس ، فحدّثنى يوماً قال :

بقيت يوماً بلا شىء ، وأنا جالس فى دكّانى ، وقد دعوت الله أن يسهّل قوتى ، فما استتممت الدعاء ، حتى فتح باب دكّانى غلام أمرد ، حسن الوجه جدًّا ، فسلّم علىّ وجلس .

فقلت له : ما حاجتك ؟

فقال : أنا عبد مملوك ، وقد طردنى مولاى ، وغضب علىّ ، وقال : انصرف عنّى إلى حيث شئت ، وما أعددت لنفسى من أطرحها عليه فى مثل هذا الوقت ، ولا أعرف من أقصده ، وقد بقيت متحيّراً فى أمرى ، وقيل لى إنّك تكتب كتب العطف ، فاكتب لى كتاباً .

فكتبت له الكتاب الذى كنت أكتبه ، وهو : بسْم الله الرّحمن الرحيم ، الحمد لله ربّ العالمين إلى آخر السورة ، والمعوّذتين ، وسورة الإخلاص ، وآية الكرسى ، و ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للنّاس ، لعلّهم يتفكّرون ﴾ .. إلى آخر السورة ، وكتبت آيات العطف ، وهى : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ، ما ألّفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألّف بينهم ﴾ .. الآية ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً . لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودّة ورحمة ﴾ إلى آخر الآية ، ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ .. إلى آخر الآية .

وقلت له : خذ هذه الرقعة ، فشدّها على عضدك الأيمن ، ولا تعلّقها عليك إلّا وأنت طاهر .

فأخذها وقام وهو يبكى ، وطرح بين يدىّ ديناراً عيناً ، فداخلتنى له رحمة ، فصلّيت ركعتين ، ودعوت له أن ينفعه الله بالكتاب ، ويردّ قلب مولاه ، وجلست .

---

١ ـ كتب العطف : احجبة لجلب المحبة أو استدامتها .

فما مضت إلاّ ساعتان ، وإذا بأبى الجود ، « خليفة عجيب » ، غلام نازوك [1] ، وكان خليفته على الشرطة ، قد جاءنى ، فقال لى : أجب الأمير نازوك ، فارتعت .

فقال : لا بأس عليك ، وأركبنى بغلاً ، وجاء بى إلى دار نازوك ، فتركنى فى الدهاليز ودخل .

فلما كان بعد ساعة ، أُدخلت ، فإذا نازوك جالس فى دست عظيم ، وبين يديه الغلمان قياماً سماطين ، نحو ثلثمائة غلام وأكثر ، وكاتبه الحسين جالس بين يديه ، ورجل آخر لا أعرفه .

فارتعت ، وأهويت لأقبّل الأرض ، فقال : مه ، عافاك الله ، لا تفعل ، هذا من سنن الجبّارين ، وما نريد نحن هذا ، اجلس يا شيخ ، ولا تخف ، فجلست .

فقال لى : جاءك اليوم غلام أمرد ، فكتبت له كتاباً للمعطف ؟

قلت : نعم .

قال : اصدقنى عمّا جرى بينكما ، حرفاً ، حرفا .

فأعدته عليه ، حتّى لم أدع كلمة ، وتلوت عليه الآيات الّتى كتبتها .

فلمّا بلغت إلى قول الغلام : أنا عبد مملوك ، وما أعددت لنفسى من أقصده فى هذه الحال ، ولا أعرف أحداً ألجأ إليه ، وقد طردنى مولاى ، بكيت لما تداخلنى من رحمة له ، وأريته الدينار الذى أعطانيه ، فدمعت عينا نازوك وتجلّد ، واستوفى الحديث .

وقال : قم يا شيخ ، بارك الله عليك ، ومهما عرضت لك من حاجة ، أو لجار لك ، أو صديق ، فسلنا إيّاها ، فإنّا نقضيها ، وأكثر عندنا وانبسط فى هذه الدار ، فإنّك غير محجوب عنها ، فدعوت له وخرجت .

فلمّا صرت خارج باب المجلس ، إذا بغلام قد أعطانى قرطاساً فيه ثلثمائة درهم ، فأخذته وخرجت

فلمّا صرت فى الدهليز ، إذا بالفتى ، فعدل بى إلى موضع وأجلسنى .

---

١ ـ نازوك : قائد تركى وصاحب شرطة بغداد ، وعجيب غلام نازوك ، من اتباعه ، ويدير الشرطة نيابة عنه . اما أبو الجود (الثالث فى سلسلة قيادات الشرطة) فهو تابع لعجيب .

فقلت : ما خبرك ؟

فقال : أنا غلام الأمير ، وكان قد طَرَدني ، وغضب عليّ ، فلمّا أن جئتك ، واحتبست عندك ، طلبني ، فرجعت مع رسله .

فقال لي : أين كنت ؟

فصدقته الحديث ، فلم يصدقني ، وأمر بإحضارك ، فلمّا اتّفقنا في الحديث ، وخرجت الساعة ، أحضرني ، وقال : يا بنيّ ، أنت الساعة من أجلّ غلماني عندي ، وأمكنهم من قلبي ، وأخصّهم بي ، إذ كنتَ لمّا غضبتُ عليك ما غيّرك ذلك عن محبّتي ، والرغبة في خدمتي ، وطلب الحيل في الرجوع إليّ وانكشف لي أنّك ما أعددت لنفسكَ - بعد الله - سواي ، ولا عرفت وجهاً تلجأ إليه في الدّنيا غيري ، فما ترى بعد هذا إلاّ كل ما تحبّ ، وسأعلي منزلتكَ ، وأبلغ بك أعلى مراتب نظرائك ، ولعلّ الله سبحانه استجاب فيك دعاء هذا الرجل الصالح ، ونفعك بالآيات ، فبأيّ شيء كافأت الرجل ؟ .

فقلت : ما أعطيته غير ذلك الدينار .

فقال : سبحان الله ، قم إلى الخزانة ، فخذ منها ما تريد ، وأعطه .

فأخذت منها هذا القرطاس ، وجئتك به ، فخذه ، وأعطاني أيضاً خمسمائة درهم ، وقال لي : الزمني ، فإنّي أحسن إليك .

فجئته بعد مديدة ، فإذا هو قائد جليل ، وقد بلغ به نازوك تلك المنزلة ، فوصلني بصلة جليلة ، وصار لي عدّةً على الدهر وذخيرة .

■ ■ ■

ظالم قصمه الله

حدّثني محمّد بن محمّد المهندس ، قال : حدّثني أبو مروان الجامدي ، قال :

ظلمني أحمد بن علي بن سعيد الكوفي ، وهو يتقلّد واسط لناصر الدولة [1] ، وقد تقلّد إمرة الأمراء ببغداد ، وكنت أحد من ظلم ، فظلمني ، وأخذ من ضيعتي بالجامدة نيّفاً وأربعين كرًّا أرزًّا ، بالنصف من حقّ الرقبة ، بغير تأويل ولا شبهة ، سوى ما أخذه بحقّ بيت المال ، وظلم فيه أيضاً ، فتظلّمت إليه ، وكلّمته ، فلم ينفعني معه شيء ، وكان الكرّ الأرز بالنصف - إذ ذاك - بثلاثين ديناراً .

فقلت له : قد أخذ مني سيّدي ما أخذ ، ووالله ، ما أهتدي أنا وعيالي ، إلى ما سوى ذلك ، وما لي ما أقوتهم به باقي سنتي ، ولا ما أعمّر به ضيعتي ، وقد طابت نفسي أن تطلق لي من جملته عشرة أكرار ، وجعلتك من الباقي في حلّ .

فقال : ما إلى هذا سبيل .

فقلت : فخمسة أكرار .

فقال : لا أفعل .

فبكيت ، وقبّلت يده ، ورقّقته ، وقلت : هب لي ثلاثة أكرار ، وتصدّق عليّ بها ، وأنت من الجميع في حلّ .

فقال : لا والله ، ولا أرزة واحدة .

فتحيّرت ، وقلت : فإني أتظلّم منك إلى الله تعالى .

فقال لي : كن على الظلامة ، (يكرّرها دفعات ، ويكسر الميم ، بلسان أهل الكوفة) .

فانصرفت منكسر القلب ، منقطع الرجاء ، فجمعت عيالي ، وما زلنا ندعو عليه ليالي كثيرة ، فهرب من واسط في اللّيلة الحادية عشرة من أخذه الأرز ، فجئت إلى البيدر ، والأرز مطروح ، فأخذته ، وحملته إلى منزلي ، وما عاد الكوفي بعدها إلى واسط ، ولا أفلح . .

---

١ - ناصر الدولة البويهي ، سيطر على منطقة واسط العراقية ، وهي فوق البصرة في الاتجاه شمالا نحو بغداد .

دين قديم

بلغني أنّه كان بالكوفة رجل من أهل الأدب والظرف ، يعاشر النّاس ، وتأتيه ألطافهم [1] ، فيعيش بها .

ثمّ انقلب الدّهر عليه ، فأمسك النّاس عنه ، وجفوه حتّى قعد في بيته ، والتجأ إلى عياله ، فشاركهنّ في فضل مغازلهنّ ، واستمرّ ذلك عليه ، حتّى نسيه النّاس ، ولزمه الفقر .

قال : فبينما أنا ذات ليلة في منزلي ، على أسوء حال ، إذا وقعُ حافرِ دابّة ، ورجل يدقّ بابي ، فكلّمته من وراء الباب .

فقلت : ما حاجتك ؟ .

فقال : إنّ أخاً لك لا أسمّيه ، يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إنّي رجل مستتر ، ولست آنس بكلّ أحد ، فإن رأيت أن تصير إليّ ، لنتحدّث ليلتنا . فقلت في نفسي : لعلّ جدّي [2] أن يكون قد تحرّك ؟ ثمّ لم أجد لي ما ألبسه ، فاشتملت بأزار امرأتي [3] ، وخرجت ، فقدّم إليّ فرساً مجنوباً كان معه ، فركبته .

إلى أن أدخلني إلى فتى من أجلّ النّاس وأجملهم وجهاً ، فقام إليّ ، وعانقني ، ودعا بطعام فأكلنا ، وبشراب فشربنا ، وأخذنا في الحديث ، فما خضت في شيء إلاّ سبقني إليه .

حتّى إذا صار وقت السّحَر ، قال : إن رأيت أن لا تسألني عن شيء من أمري ، وتجعل هذه الزيارة بيني وبينك ، إذا أرسلت إليك فعلتَ ، وها هنا دراهم تقبلها ، ولا تردّها ، ولا يضيق بعدها عنك شيء ، فنهضت ، فأخرج إليّ جراباً مملوءاً دراهم .

فدخلتني أريحيّة الشراب ، فقلت : اخترتني على النّاس للمنادمة ، ولسرّك ، وآخذ على ذلك أجراً ؟ لا حاجة لي في المال .

---

١ ـ الألطاف : الهدايا .
٢ ـ جـدّي : حظي .
٣ ـ اشتمـل : تلفّع .

فجهد بي ، فلم آخذه ، وقدّم إليّ الفرس ، فركبته ، وعدت إلى منزلي ، وعيالي متطلّعون لما اجيء به ، فاخبرتهم بخبري .

واصبحت نادماً على فعلي ، وقد ورد عليّ وعلى عيالي ، مالم يكن في حسابنا .

فمكثت حيناً ، لا ياتي إليّ رسول الرّجل ، إلى ان جاءني بعد مدّة ، فصرت إليه ، فعاودني بمثل ذلك الفعل ، فعاودته بالامتناع ، وانصرفت مخفقاً ، فاقبلت امراتي عليّ باللوم والتوبيخ .

فقلت لها : انت طالق ثلاثاً إن عاودني ولم آخذ ما يعطيني .

فمكثت مدّة أطول من الأوّلة [1] ، ثمّ جاءني رسوله ، فلمّا أردت الركوب ، قالت لي امرأتي : يا ميشوم اذكر يمينك ، وبكاء بناتك ، وسوء حالك .

فصرت إلى الرّجل ، فلمّا أفضينا إلى الشرب ، قلت له : إنّي أجد علّة تمنعني منه ، وإنّما أردت أن يكون رأيي معي .

فأقبل الرّجل يشرب ، وأنا أحادثه ، إلى أن انبلج الفجر ، فأخرج الجراب ، وعاودني ، فأخذته ، فقبّل رأسي ، وشكرني على قبول برّه ، وقدّم إليّ الفرس ، فانصرفت عليه ، حتّى انتهيت إلى منزلي ، فألقيت الجراب .

فلمّا رآه عيالي ، سجدن لله شكراً ، وفتحناه ، فإذا هو مملوء دنانير .

فأصلحت منه حالي ، واشتريت مركوباً [2] ، وثياباً حسنة ، وأثاثاً ، وضيعة قدّرت أنّ غلّتها تفي بي ، وبعيالي بعدي ، واستظهرت على زماني ببقية الدنانير .

وانثال النّاس عليّ ، يظهرون السرور بما تجدّد لي ، وظنّوا أنّي كنت غائباً في انتجاع ملك [3] ، فقدمت مثرياً ، وانقطع رسل الرّجل عنّي .

فبينما أنا أسير يوماً بالقرب من منزلي ، فإذا ضوضاء عظيمة ، وجماعة مجتمعة .

فقلت : ما هـذا ؟ .

قالوا : رجلٌ من بني فلان ، كان يقطع الطريق ، فطلبه السلطان ، إلى أن عرف خبره ها هنا ، فهجم عليه ، وقد خرج على النّاس بالسّيف ، يمنع [4] نفسه .

---

١ ـ الأولة : الأولى بلهجة العراق والخليج ، وفي مصر : الاولانية .

٢ ـ المركوب هنا ما يركب من الدواب .

٣ ـ الانتجاع : الرعي ، والمعنى المقصود هنا : قصدت اميرا فاعطاني .

٤ ـ يمنع نفسه : يدافع عن نفسه .

فقربت من الجمع ، وتأمّلت الرّجل ، فإذ هو صاحبي بعينه ، وهو يقاتل العامة ، والشُرَط ، ويكشف النّاس ، فيبعدون عنه ، ثمّ يتكاثرون عليه ويضايقونه .

فنزلت عن فرسي ، وأقبلت أقوده ، حتّى دنوت منه ، وقد انكشف النّاس عنه .

فقلت : بأبي أنت وأمّي ، شأنك والفرس ، والنجاة ، فاستوى على ظهره ، فلم يلحق .

فقبض عليّ الشرط ، وأقبلوا عليّ ، يلهزوني [1] ، ويشتموني ، حتّى جاءوا بي إلى عيسى بن موسى ، وهو والي الكوفة ، وكان بي عارفاً .

فقالوا : أيّها الأمير ، كدنا أن نأخذ الرّجل : فجاء هذا ، فأعطاه فرساً نجا عليه .

فاشتدّ غضب عيسى بن موسى ، وكاد أن يوقع بي ، وأنا منكر لذلك .

فلمّا رأيت المصدوقة [2] ، قلت : أيّها الأمير ، أدنني إليك ، أصدقك .

فاستدناني ، فشرحت له ما كان أفضت بي الحال إليه ، وما عاملني به الرّجل ، وأنّي كافأته بجميل فعله .

فقال لي سرّاً : أحسنت ، لا بأس عليك .

ثمّ التفت إلى النّاس فقال : يا حمقى ، هذا يتّهم ؟ إنّما لفظ حافر فرسه حصاة ، فقاده ليريحه ، فغشيه رجل مستقتل ، بسيف ماض ، قد نكلتم [3] عنه بأجمعكم ، فكيف كان هو يدفعه عن فرسه ؟ انصرفوا ، ثمّ خلّى سبيلي .

فانصرفت إلى منزلي ، وقد قضيت ذمام الفتى ، وحصلت النعمة بعد الشدّة وأمنت عواقب الحال ، وكان آخر عهدي به .

■ ■ ■

---

١ ـ اللهز : الضرب بالكف على الرقبة .

٢ ـ المصدوقة : العصا التي يؤدب بها الأمير من يعاقبه ، أطلق عليها هذا الاسم .

٣ ـ نَكَل : تراجع وامتنع .

قاطع طريق .. مثقف

وحدّثني عبد الله بن عمر بن الحارث الواسطي السراج ، المعروف بأبي أحمد الحارثيّ ، قال :

كنت مسافراً في بعض الجبال ، فخرج علينا ابن سباب الكرديّ ، فقطع علينا ، وكان بزيّ الأمراء ، لا بزيّ القطّاع .

فقربت منه لأنظر إليه وأسمع كلامه ، فوجدته يدلّ على فهم وأدب ، فداخلته فإذا برجل فاضل ، يروى الشعر ، ويفهم النحو ، فطمعت فيه ، وعملت في الحال أبياتاً مدحته بها .

فقال لي : لست أعلم إن كان هذا من شعرك ، ولكن اعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة ، لأعلم أنك قلته ، وأنشدني بيتاً .

قال : فعملت في الحال اجازة له ثلاثة أبيات :

فقال لي : أيّ شيء أخذ منك ؟ لأردّه إليك .

قال : فذكرت له ما أخذ منّي ، وأضفت إليه قماش رفيقين كانا لي .

فردّ جميع ذلك ، ثم أخذ من أكياس التجّار التي نهبها ، كيساً فيه ألف درهم ، فوهبه لي .

قال : فجزيته خيراً ، ورددته عليه .

فقال لي : لم لا تأخذه ؟ فورّيت[1] عن ذلك .

فقال : أحبّ أن تصدقني .

فقلت : وأنا آمن ؟

فقال : أنت آمن .

فقلت : لأنّك لا تملكه ، وهو من أموال الناس الذين أخذتها منهم الساعة ظلماً ، فكيف يحلّ لي أن آخذه ؟

فقال لي : أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب اللصوص ، عن بعضهم ، قال : إنّ هؤلاء التجّار خانوا أماناتهم ، ومنعوا زكاة أموالهم ، فصارت أموالهم

---

[1]- التورية : الإشارة إلى المقصود بطريق غير مباشر .

مستهلكة [1] بها ، واللصوص فقراء إليها ، فإذا أخذوا أموالهم ـ وإن كرهوا أخذها ـ كان ذلك مباحاً لهم ، لأنّ عين المال مستهلكة بالزكاة ، وهؤلاء يستحقّون أخذ الزكاة ، بالفقر ، شاء أرباب الأموال أم كرهوا .

قلت : بلى ، قد ذكر الجاحظ هذا ، ولكن من أين يعلم إنّ هؤلاء ممن استهلكت أموالهم الزكاة ؟

فقال : لا عليك ، أنا أحضر هؤلاء التجّار الساعة ، وأريك بالدليل الصحيح أنّ أموالهم لنا حلال [2] .

ثم قال لأصحابه : هاتوا التجّار ، فجاءوا .

فقال لأحدهم : منذ كم أنتَ تتَاجر في هذا المال الذي قطعنا عليه ؟

قال : منذ كذا وكذا سنة .

قال : فكيف كنت تخرج زكاته ؟ فتلجلج ، وتكلّم بكلام من لا يعْرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يخرجها .

ثم دعا آخر ، فقال له : إذا كان معك ثلثمائة درهم ، وعشرة دنانير ، وحالت عليك السنة ، فكم تخرج منها للزكاة ؟ فما أحسن أن يجيب .

ثم قال لآخر : إذا كان معك متاع للتجارة ، ولك دينٍ على نفسين ، أحدهما مليء ، والآخر معسر ، ومعك دراهم ، وقد حال الحول على الجميع ، كيف تخرج زكاة ذلك ؟

قال : فما فَهِمَ السؤال ، فضلاً عن أن يتعاطى الجواب .

فصرفهم ، ثم قال لي : بان لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ ؟ وأنّ هؤلاء التجار ما زكّوا قط ؟ خذ الآن الكيس .

---

١ ـ هذا الراي يقوم على اساس ان الزكاة مستحقة في المال الذي يبلغ النصاب على راس كل سنة . فإذا أهمل المالك إخراج زكاة ماله عددا من السنين ، ادى هذا ـ على الراى السابق ـ إلى اعتبار المال كله مستحقا للزكاة .

٢ ـ هنا مغالطة واضحة ، وحتى لو كان المال الذي لم تخرج زكاته يقلس إلى المال المسروق ، فإن سرقة المسروق ليست مباحة .

قال : فاخذته ، وساق القافلة لينصرف بها .
فقلت : إن رأيت أيّها الأمير أن تنفذ معنا من يبلغنا المأمن ، كان لك الفضل .
ففعل ذلك .

■ ■ ■

نقابة اللصوص

غلام لى قال :

كنت ناقداً بالأبلّة [1] ، لرجل تاجر ، فاقتضيت له فى البصرة نحو خمسمائة دينار عيناً وَوَرِقا[2] ، ولففتها فى فوطة ، وأشفيت على المصير إلى الأبلّة .

فما زلت أطلب ملّاحاً ، حتى رأيت ملّاحاً مجتازاً فى خيطيّة [3] خفيفة فارغة ، فسألته أن يحملنى ، فسهّل علىّ الأجرة ، وقال : أنا راجع إلى منزلى بالأبلّة ، فانزل معى ، فنزلت ، وجعلت الفوطة بين يدىّ .

وسرنا إلى أن تجاوزنا مسماران [4] ، فإذا رجل ضرير على الشطّ ، يقرأ أحسن قراءة تكون .

فلمّا رآه الملّاح كبّر ، فصاح هو بالملّاح : احملنى ، فقد جنّنى الليل ، وأخاف على نفسى ، فشتمه الملّاح .

فقلت له : احمله ، فدخل إلى الشطّ فحمله ، فلمّا حصل معنا رجع إلى قراءته ، فخلب عقلى بطيبها .

فلمّا قربنا من الأبلّة ، قطع القراءة ، وقام ليخرج فى بعض المشارع فى الأبلّة ، فلم أر الفوطة ، فقمت واقفاً ، واضطربت ، وصحت .

فاستغاث الملّاح ، وقال : الساعة تقلب الخيطيّة ، وخاطبنى خطاب من لا يعلم حالى .

---

١ ـ الأبلّة : بلد قرب البصرة على شاطىء دجلة . والناقد هو الجابى او محصل الاموال .
٢ ـ العين : الذهب ، والورق (بكسر الراء) الفضة .. ويعنى الدنانير والدراهم .
٣ ـ الخيطية : نوع من الزوارق الخفيفة .
٤ ـ اسم ضاحية قريبة من البصرة .

فقلت له : يا هذا ، كانت بين يدىّ فوطة فيها خمسمائة دينار .

فلما سمع الملاّح ذلك ، بكى ، ولطم ، وتعرّى من ثيابه ، وقال : أدخل الشطّ ففتّش ، ولا لى موضع أخبيء فيه شيئاً فتتّهمنى بسرقته ، ولى أطفال ، وأنا ضعيف ، فالله ، الله فى أمرى ، وفعل الضرير مثل ذلك .

وفتّشت الخيطيّة فلم أجد شيئاً ، فرحمتهما ، وقلت : هذه محنة لا أدرى كيف التخلّص منها وخرجنا ، فعملت على الهرب . وأخذ كلّ واحد منّا طريقاً ، وبتّ فى بيتى ، ولم أمض إلى صاحبى ، وأنا بليلة عظيمة .

فلما أصبحت ، عملت على الهرب إلى البصرة ، لأستخفى فيها أيّاماً ، ثم أخرج إلى بلد شاسع .

فانحدرت ، فخرجت فى مشرعة بالبصرة ، وأنا أمشى وأتعثّر وأبكى قلقاً على فراق أهلى وولدى ، وذهاب معيشتى وجاهى ، إذ اعترضنى رجل .

فقال : يا هذا ، ما بك ؟

فقلت : أنا فى شغل عنك ، فاستحلفنى ، فأخبرته .

فقال امض إلى السجن ببنى نمير ، واشتر معك خبزاً كثيراً ، وشواءً جيّداً ، وحلوى ، وسل السجّان أن يوصلك إلى رجل محبوس ، يقال له : أبو بكر النقّاش ، وقل له : أنا زائره ، فإنّك لا تمنع ، وإن منعت ، فهب للسجّان شيئاً يسيراً فإنّه يدخلك إليه ، فإذا رأيته فسلّم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك ، فإن أكل وغسل يديه ، فإنه يسألك عن حاجتك ، فأخبره خبرك ، فإنّه سيدلّك على من أخذ مالك ، ويرتجعه لك .

ففعلت ذلك ، ووصلت إلى الرجل ، فإذا هو شيخ مثقل بالحديد .

فسلّمت عليه ، وطرحت ما معى بين يديه ، فدعا رفقاء كانوا معه فأقبلوا يأكلون معه ، فلمّا استوفى وغسل يديه .

قال : من أنت ، وما جاء بك ؟ فشرحت له قصّتى .

فقال : امض الساعة لوقتك ـ ولا تتأخر ـ إلى بنى هلال ، فاقصد الدرب الفلانى حتى تنتهى إلى آخره ، فإنّك تشاهد باباً شعثاً (١) ، فافتحه وادخل بلا استئذان ، فستجد دهليزاً طويلاً يؤدّى إلى بابين ، فادخل الأيمن منهما ، فسيدخلك إلى دار فيها بيت فيه أوتاد وبوارى ، وعلى كلّ وتد إزار ومئزر ، فانزع ثيابك ، وعلّقها على الوتد ، واتّزر بالمئزر واتّشح بالإزار ، واجلس ، فسيجيء قوم يفعلون كما

---

١ ـ الشعث . غير المنسّق او المنتظم .

فعلت ، إلى أن يتكاملوا ، ثم يؤتون بطعام فكل معهم ، وتعمّد أن تفعل كما يفعلون فى كلّ شىء .

فإذا أتوا بالنبيذ فاشرب معهم أقداحاً يسيرة ، ثم خذ قدحاً كبيراً ، فاملأه ، وقم ، وقل : هذا سارى [١] لخالى أبى بكر النقّاش ، فسيضحكون ويفرحون ، ويقولون : هو خالك ؟ فقل : نعم ، فسيقومون ويشربون لى ، فإذا تكامل شربهم لى ، وجلسوا ، فقل لهم : خالى يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : بحياتى يا فتيان ، ردّوا على ابن أختى المئزر الذى أخذتموه أمس من السفينة بنهر الأبلّة ، فإنّهم يردّونه عليك .

فخرجت من عنده ، ففعلت ما قال لى ، وجرت الصورة ، على ما ذكر ، سواء بسواء وردّت الفوطة علىّ بعينها ، وما حلّ شدّها [٢] .

فلما حصلَتْ لى ، قلت لهم : يافتيان ، هذا الذى فعلتموه هو قضاء لحقّ خالى ، وأنا لى حاجة تخصّنى .

فقالوا : مقضيّة .

فقلت : عرّفونى كيف أخذتم الفوطة ؟ فامتنعوا ، فأقسمت عليهم بحياة أبى بكر النقّاش .

فقال لى واحد منهم : تعرفنى ؟ فتأمّلته ، فإذا هو الضرير الذى كان يقرأ . وإنّما كان يتعامى حيلة ومكراً .

وأومأ إلى آخر ، وقال : أتعرف هذا ؟ فتأملته ، فإذا هو الملاّح بعينه .

فقلت : أخبرانى كيف فعلكما ؟

فقال الملاّح : أنا أدور فى المشارع [٣] فى أوّل أوقات المساء ، وقد سبقت المتعامى فأجلسته حيث رأيت ، فإذا رأيت من معه شىء له قدر ، ناديته وأرخصت عليه الأجرة وحملته ، فإذا بلغ إلى القارىء ، وصاح بى ، شتمته ، حتى لا يشكّ الراكب فى براءة الساحة ، فإن حمله الراكب فذاك ، وإن لم يحمله رقّته حتى

---

١ ـ هذا كما يقال الآن : هذا نخب فلان ، أو نشرب على شرف فلان !!

٢ ـ أى أن صرة النقود كانت لا تزال مربوطة على حالها ، وهذا يعنى أن اللص لا يفتح ما جمع إلاّ فى هذا المجلس العام .

٣ ـ المشرعة ما نطلق عليه الموردة .

يحمله ، فإذا حمله ، وجلس هذا يقرأ قراءته الطيّبة ، ذهل الرجل كما ذهلت أنت ، فإذا بلغنا إلى موضع نكون قد خلّينا فيه رجلاً متوقّعاً لنا ، يسبح حتى يلاصق السفينة ، وعلى رأسه قوصرة [1] ، فلا يفطن الراكب ، فيستلب هذا الرجل المتعامى - بخفّة - الشيء الذى قد عينّا عليه ، فيلقيه إلى الرجل الذى عليه القوصرة ، فيأخذها ويسبح إلى الشطّ ، فإذا أراد الراكب النزول ، وافتقد ما معه ، عملنا كما رأيت ، فلا يتهمنا ، ونتفرّق ، فإذا كان الغد ، اجتمعنا واقتسمنا ما أخذناه ، واليوم كان يوم القسمة ، فلما جئت برسالة خالك أستاذنا ، سلّمنا إليك الفوطة .

قال : فأخذتها ، وانصرفت ..

■ ■ ■

- القوصرة ما يشبه الزنبيل او المقطف .

سيكولوجية الرشوة

ورد علينا فى وقت من الأوقات ، بعض العمّال [1] متقلّداً للأهواز ، من قبل السلطان ، فتتّبع رسومنا [2] ، ورام نقض شيء منها .

فكنت أنا وجماعة من التنّاء [3] فى المطالبة ، وكان فيها ذهاب غلّاتنا فى تلك السنة ، لو تمّ علينا ، وذهاب أكثر قيمة ضياعنا .

فقال لى الجماعة : ليس لنا غيرك ، تخلو به ، وتبذل له مرفقاً [4] ، وتكفيناه .

فجئته ، وخلوتُ به ، وبذلت له مرفقاً جليلاً ، فلم يقبله ، ودخلت عليه بالكلام من غير وجه [5] ، فما لانَ ، ولا أجابَ .

فلمّا يئست منه ، وكدت أن أقوم ، قلت له : يا هذا الرّجل ، أنت مقيم من هذا الأمر ، على خطأ شديد ، لأنّك تظلمنا ، وتزيل رسومنا ، من حيث لا يحمدك السلطان ، ولا تنتفع أنت أيضاً بذلك .

ومع هذا فأخبرنى ، هل تأمن أن تكون قد صُرِفْتَ [6] ، وكتاب صرفك فى الطّريق ، يرد عليك بعد يومين أو ثلاثة ، فتكون قد أهلكتنا ، وأثمت فى أمورنا ، وفاتك هذا المرفق الجليل ، ولعلّنا نحن نكفى ، ويجيء غيرك ، فلا يطالبنا ، أو يطالبنا فنبذل له نحن هذا المرفق ، فيقبله ، ويكون الضرر يدخل عليك ؟

فحين سمع هذا وافق ، كأنّه قد علم من أمره ضعفاً ببغداد ، وتلوّناً ، وأنّى قد أحسست بانحلال أمره ، وأنّ لى ببغداد من يكاتبنى بالأخبار .

فأخذ يخاطبنى مخاطبة من أين وقع إلىّ هذا ، فقوّيته فى نفسه ، فأجاب إلى أخذ المرفق ، وإزالة المطالبة .

---

١ ـ العمّال : كبار الموظفين (عكس الآن) من الحكام والمديرين .

٢ ـ الرسوم : الأمور المتفق عليها ، والحقوق المكتسبة .

٣ ـ التنّاء : الملاك والأثرياء . وهذا يعنى انه حين تشدد العامل فى نقض بعض الإعفاءات ، قرر كبار الملاك رشوته ليبقى الأمر على ما هو عليه . وفى ذلك دلالة على ارتشاء من سبقوه إلى شغل الوظيفة .

٤ ـ المرفق : الرشوة ، ويجمع على : مرافق .

٥ ـ اى : اغريته باكثر من طريقة .

٦ ـ صرفت : فصلت عن عملك !!

فسلّمت إليه رقاعاً إلى الصيارف بالمال ، وأخذت منه حجّة بزوال المطالبة ، فانصرفت وقد بلغتُ ما أردت .

فلمّا كان بعد خمسة أيّام ، ورد عليه كتاب الصرف ، فدخلت إليه ، فأخذ يشكرني ويخبرني بما ورد عليه ، فأوهمته أنّي كنت قلت له ذلك عن أصل[1] ، وكفيناه .

٧ ـ أي أنني كنت أعرف مقدما بأنه سيفصل عن عمله حقيقة .

■ ■ ■

١ ـ اى اننى كنت اعرف مقدما بانه سيفصل عن عمله حقيقة .

ثراء العلماء

وجدت في بعض الكتب عن الأصمعي ، قال :

كنت بالبصرة ، أطلب العلم ، وأنا مقلّ [1] ، وكان على باب زقاقنا بقّال ، إذا خرجتُ باكراً يقول لي : إلى أين ؟ فأقول : إلى فلان المحدث ، وإذا عدت مساءً ، يقول لي : من أين ؟ فأقول : من عند فلان الأخباريّ ، أو اللّغوي .

فيقول : يا هذا ، اقبل وصيّتي ، أنت شابّ ، فلا تضيّع نفسك ، واطلب معاشاً يعود عليك نفعه ، وأعطني جميع ما عندك من الكتب ، حتّى أطرحها في الدن [2] ، وأصبّ عليها من الماء للعشرة أربعة ، وأنبّذه ، وأنظر ما يكون منه ، والله ، لو طلبت منّي ، بجميع كتبك ، جرزة بقل [3] ، ما أعطيتك .

فيضيق صدري بمداومته هذا الكلام ، حتّى كنت أخرج من بيتي ليلاً ، وأدخله ليلاً ، وحالي - في خلال ذلك - تزداد ضيقاً ، حتّى أفضيت إلى بيع آجرّ [4] أساسات داري ، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي ، وطال شعري ، وأخلق ثوبي ، واتّسخ بدني .

فأنا كذلك ، متحيّراً في أمري ، إذ جاءني خادم للأمير محمّد بن سليمان الهاشمي ، فقال : أجب الأمير .

---

١ - مقلّ : قليل المال فقير .

٢ - الدنّ : الوعاء يشبه البرميل ، والعبارة تعني السخرية من الكتب .

٣ - الجرزة : الحزمة .

٤ - الآجر : الحجارة .

فقلت : ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى ؟ .

فلمّا رأى سوء حالى ، وقبح منظرى ، رجع فأخبر محمّد بن سليمان بخبرى ، وعاد إلىّ ، ومعه تخوت ثياب ، ودرج فيه بخور ، وكيس فيه ألف دينار .

وقال : قد أمرنى الأمير ، أن أدخلك الحمّام وألبسك من هذه الثياب ، وأدع باقيها عندك ، وأطعمك من هذا الطعام ، وإذا بخوان كبير فيه صنوف الأطعمة ، وأبخرك ، لترجع إليك نفسك ، ثمّ أحملك إليه . فسررت سروراً شديداً ، ودعوت له ، وعملت ما قال ، ومضيت معه ، حتّى دخلت على محمّد ابن سليمان ، فسلّمت عليه ، فقرّبنى ، ورفعنى .

ثمّ قال : يا عبد الملك ، قد اخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين ، فاعمل على الخروج إلى بابه ، وانظر كيف تكون ؟ .

فشكرته ، ودعوت له ، وقلت : سمعاً وطاعة ، سأخرج شيئاً من كتبى وأتوّجه .

فقال : ودّعنى ، وكن على الطريق غداً .

فقبّلت يده ، وقمت ، فأخذت ما احتجت إليه من كتبى ، وجعلت باقيها فى بيت ، وسددت بابه ، وأقعدت فى الدّار عجوزاً من أهلنا ، تحفظها .

وباكرنى رسول الأمير محمّد بن سليمان ، وأخذنى ، وجاء بى إلى زلّال [1] قد اتّخذ لى ، وفيه جميع ما أحتاج إليه ، وجلس معى ، ينفق علىّ ، حتّى وصلت إلى بغداد .

ودخلت على أمير المؤمنين الرّشيد ، فسلّمت عليه ، فردّ علىّ السلام .

وقال : أنت عبد الملك بن قريب الأصمعى .

قلت : نعم ، أنا عبد أمير المؤمنين بن قريب الأصمعى .

قال : إعلم ، أنّ ولد الرجل مهجة قلبه ، وثمرة فؤاده ، وهو ذا أسلم إليك ابنى محمّدا [2] بأمانة الله ، فلا تعلّمه ما يفسد عليه دينه ، فلعلّه أن يكون للمسلمين إماماً .

قلت : السمع والطاعة .

فأخرجه إلىّ ، وحوّلتُ معه إلى دار ، قد أخليت لتأديبه ، وأخدم فيها من

١ ـ الزلال : نوع من سفن السفر للطبقة الترية .
٢ ـ محمد . هو الامين ، ولى عهد الرشيد .

أصناف الخدم ، والفرش ، وأجرى علىّ فى كلّ شهر عشرة آلاف درهم ، وأمر أن تخرج إلىّ فى كلّ يوم مائدة ، فلزمته .

وكنت مع ذلك ، أقضى حوائج النّاس ، وآخذ عليها الرغائب [1] ، وأنفذ جميع ما يجتمع لى ، أوّلاً ، فأوّلاً ، إلى البصرة ، فأبنى دارى ، وأشترى عقاراً ، وضياعاً .

فأقمت معه ، حتى قرأ القرآن ، وتفقّه فى الدّين ، وروى الشعر واللّغة ، وعلم أيّام النّاس وأخبارهم .

واستعرضه الرّشيد ، فأعجب به ، وقال : يا عبد الملك ، أريد أن يصلّى بالنّاس ، فى يوم الجمعة ، فاختر له خطبة ، فحفّظه إيّاها .

فحفّظته عشراً ، وخرج ، فصلّى بالنّاس ، وأنا معه ، فأعجب الرّشيد به ، وأخذه نثار الدنانير والدراهم من الخاصّة والعامّة ، وأتتنى الجوائز والصلات من كلّ ناحية ، فجمعت مالاً عظيماً .

ثمّ استدعانى الرّشيد ، فقال : يا عبد الملك ، قد أحسنتَ الخدمة ، فتمنَّ .

قلت : ما عسى أن أتمنّى ، وقد حزت أمانىّ .

فأمر لى بمال عظيم ، وكسوة كثيرة ، وطيب فاخر ، وعبيد ، وإماء ، وظهر [2] ، وفرش ، وآلة .

فقلت : إن رأى أمير المؤمنين ، أن يأذن لى فى الإلمام بالبصرة ، والكتابة إلى عامله بها ، أن يطالب الخاصّة والعامّة ، بالسّلام علىّ ثلاثة أيّام ، وإكرامى بعد ذلك .

فكتب إليه بما أردت ، وانحدرت إلى البصرة ، ودارى قد عمرت ، وضياعى قد كثرت ، ونعمتى قد فشت ، فما تأخّر عنّى أحد .

فلمّا كان فى اليوم الثالث ، تأمّلت أصاغر من جاءنى ، فإذا البقّال ، وعليه عمامة وسخة ، ورداء لطيف ، وجبّة قصيرة ، وقميص طويل ، وفي رجله

---

١ ـ الأصمعى يذكر هنا أنه كان يتوسط للناس عند أهل الحكم ، ويقبل الهدايا ويحولها على الفور من بغداد إلى مدينته (البصرة) وبمثل هذا يحتال أهل زماننا من أصحاب السلطان ، حتى لا يلاحظ الناس اتساع ثرواتهم ، أو تنتبه إليهم النيابة الإدارية بعد أن تنتهى وظائفهم !! .

٢ ـ الظهر : الدابة كالحصان والبعير ، والآلة : الأثاث .

جرموقان[1] ، وهو بلا سراويل .

فقال : كيف أنت يا عبد الملك ؟ .

فاستضحكت من حماقته ، وخطابه لى بما كان يخاطبنى به الرّشيد .

وقلت : بخير ، وقد قبلت وصّيتك ، وجمعت ما عندى من الكتب ، وطرحتها فى الدنّ ، كما أمرتَ ، وصببت عليها من الماء للعشرة أربعة ، فخرج ما ترى .

ثمّ أحسنت إليه بعد ذلك ، وجعلته وكيلى .

■ ■ ■

١ ـ الجرموق : يشبه (البوت) وكان يلبس قديما فوق الخف لحمايته من الطين .

أذان منتصف الليل

حدّثني أبو الحسن محمّد بن عبد الواحد الهاشمي :

أنّ شيخاً من التجّار ، كان له على بعض القوّاد ، مال جليل ببغداد ، فماطله به ، وجحده إيّاه ، واستخفّ به .

قال : فعزمتُ على التظلّم إلى المتعضد [1] ، لأنّي كنت تظلّمت إلى عبيد الله بن سليمان الوزير ، فلم ينفعني ذلك .

فقال لي بعض إخواني : عليّ أن آخذ لك المال ، ولا تحتاج إلى أن تتظلّم إلى الخليفة ، قم معي السّاعة ، فقمت معه .

فجاء بي إلى خيّاط في سوق الثلاثاء ، يخيط ، ويقرىء القرآن في مسجدٍ ، فقصّ عليه قصّتي ، فقام معنا .

فلمّا مشينا ، تأخّرت ، وقلت لصديقي : لقد عرّضت هذا الشيخ ، وإيّانا ، لمكروه عظيم ، هذا إذا حصل على باب الرجل ، صُفِعَ ، وصفعنا معه ، هذا لم يلتفت إلى شفاعة فلان ، وفلان ، ولم يفكّر في الوزير ، فكيف يفكّر في هذا الفقير ؟ .

فضحك ، وقال : لا عليك ، إمش ، واسكت .

فجئنا إلى باب القائد ، فحين رأى غلمانه الخيّاط ، أعظموه وأهووا لتقبيل

---

١ ـ المعتضد : احد خلفاء بني العباس الاقوياء .

يده ، فمنعهم من ذلك ، وقالوا : ما جاء بك أيّها الشيخ ؟- فإنّ صاحبنا راكب [1] ، فإن كان لك أمر يتمّ بنا بادرنا إليه وإلاّ فادخل ، وأجلس إلى أن يجيء ، فقويت نفسى بذلك ، ودخلنا وجلسنا .

وجاء القائد ، فلمّا رأى الشيخ أعظمه إعظاماً تاماً ، وقال : لست أنزع ثيابى ، أو تأمرنى بأمرك .

فخاطبه فى أمرى ، فقال : والله ، ما عندى إلاّ خمسة آلاف درهم تسأله أن يأخذها ، وأعطيه رهناً فى باقى ماله .

فبادرت إلى الإجابة ، فأحضر الدراهم ، وحلياً بقيمة الباقى ، فقبضت ذلك منه ، وأشهدت عليه الرّجل ، وصديقى ، أنّ الرهن عندى إلى أجل ، فإن حلّ الأجل ولم يعطنى ، فقد وكّلنى فى بيعه ، وقبض مالى من ثمنه ، فخرجنا ، وقد أجاب إلى ذلك .

فلمّا بلغنا مسجد الخيّاط ، قلت له : قد ردّ الله تعالى علىّ هذا المال بسببك ، فأحبّ أن تأخذ منه ما أحببت ، بطيبة من قلبى .

فقال : ما أسرع ما كافأتنى على الجميل بالقبيح ، إنصرف ، بارك الله لك فى مالك .

فقلت : قد بقيت لى حاجة .

قال : قل .

قلت : تخبرنى عن سبب طاعته لك ، مع تهاونه بأكثر أهل الدولة .

فقال : قد بلغتَ مرادك ، فلا تقطعنى عن شغلى ، وما أعيش به .

فألححت عليه ، فقال : أنا رجلٌ أصلّى بالنّاس فى هذا المسجد ، وأقرىء القرآن ، منذ أربعين سنة ، ومعاشى من هذه الخياطة ، لا أعرف غيرها .

وكنت منذ دهر ، قد صلّيت المغرب ، وخرجت أريد منزلى ، فاجتزت بتركىّ كان فى هذه الدار ، وامرأة جميلة مجتازة ، وقد تعلّق بها وهو سكران ، ليدخلها داره ، وهى ممتنعة تستغيث ، وليس من أحد يغيثها ، أو يمنعه منها ، وتقول فى جملة كلامها : إنّ زوجى قد حلّف علىّ بالطلاق ، أن لا أبيت برّا ، فإن بيتنى ، خرب بيتى ، مع ما يرتكبه منّى من الفاحشة .

---

١ ـ العبارة تعنى ان سيدهم فى مهمة خارج بيته .

قال : فرفقت به وسألته تركتها ، فضرب رأسي بدبّوس كان في يده ، فشجّني ، ولكمني ، وأدخل المرأة بيته .

فصِرتُ إلى منزلي ، وغسلت الدم ، وشددت الشجّة ، واسترحت ، وخرجت لصلاة العشاء الآخرة .

فلمّا صلّينا ، قلت لمن معي في المسجد : قوموا بنا إلى عدوّ الله ، هذا التركي ، لننكر عليه ، ولا نبرح ، أو نخرج المرأة .

فقاموا ، وجئنا فضججنا على بابه ، فخرج إلينا في عدّة غلمان ، فأوقع بنا ، وقصدني من بين الجماعة ، فضربني ضرباً عظيماً كدت أتلف منه ، فحملني الجيران إلى منزلي كالتالف ، فعالجني أهلي ، ونمت نوماً قليلاً ، وقمت نصف الليل ، فما حملني النوم ، للألم ، والفكر في القصّة .

فقلت : هذا قد شرب طول ليلته ، ولا يعرف الأوقات ، فلو أذّنتُ ، لوقع له أنّ الفجر قد طلع ، وأطلق المرأة ، فلحقت بيتها قبل الفجر ، فسلمت من أحد المكروهين .

فخرجت إلى المسجد متحاملاً ، وصعدتُ المنارة ، فأذّنتُ ، وجلست أطلع منها إلى الطريق ، أترقّب خروج المرأة ، فإن خرجَتْ ، وإلاّ أقمتُ الصلاة ، لئلا يشكّ في الصباح ، فيخرجها .

فما مضت إلاّ ساعة ، والمرأة عنده ، حتّى رأيت الشارع قد امتلأ خيلاً ، ورجالاً ، ومشاعل ، وهم يقولون : من أذّن الساعة ؟ ففزعتُ ، وسكتّ .

ثمّ قلت : أخاطبهم ، لعلّي أستعين بهم على إخراج المرأة ، فصحت من المنارة : أنا أذّنت .

فقالوا لي : إنزل ، وأجب أمير المؤمنين .

فقلت : دنا الفرج ، فنزلت ، فإذا بدر [1] ، وعدّة غلمان ، فحملني ، وأدخلني على المعتضد ، فلمّا رأيته ، هبته ، وارتعتُ ، فسكّن منّي .

وقال : ما حملك على أن تغرّ المسلمين بأذانك في غير وقته ، فيخرج ذو الحاجة في غير وقتها ، ويمسك المريد للصوم ، في وقت قد أباح الله له الأكل فيه ، وينقطع العسس والحرس عن الطواف ؟

---

١ ـ بدر من موالي المعتضد المقربين جدا .

فقلت : يؤمننى أمير المؤمنين ، لأصدقه .

فقال : أنت آمن .

فقصصت عليه قصّة التركى ، وأريته الآثار .

فقال : يا بدر ، علىّ بالغلام الساعة والمرأة ، وعُزِلْتُ فى موضع .

فمضى بدر ، وأحضر الغلام والمرأة ، فسألها المعتضد عن الصورة ، فأخبرته بمثل ما أخبرته .

فقال لبدر : بادر بها الساعة إلى زوجها ، مع ثقة يدخلها دارها ، ويشرح لزوجها القصّة ، ويأمره عنّى بالتمسّك بها ، والإحسان إليها .

ثمّ استدعانى ، فوقفت بإزائه ، فجعل يخاطب الغلام ، وأنا واقف أسمع .

فقال له : كم جرايتك ؟

قال : كذا وكذا .

قال : وكم عادتك ؟

قال : كذا وكذا .

قال : وكم صلاتك ؟

قال : كذا وكذا .

قال : وكم جارية لك ؟

قال : كذا وكذا ، فذكر عدّة جوارى .

قال : أفما كان فيهنّ ، وفى هذه النعمة العريضة ، كفاية عن ارتكاب معصية الله تعالى ، وخرق هيبة السلطان ، حتّى استعملت ذلك ، وجاوزته إلى الوثوب بمن أمرك بالمعروف ؟ فأسقط الغلام فى يده ، ولم يحر جواباً .

فقال : هاتوا جوالقا[1] ، ومداق الجص[2] وأدخلوه الجوالق ، ففعلوا ذلك به ،

وقال للفرّاشين : دقّوه ، وأنا أسمع صياحه ، إلى أن مات ، فأمر به ، فطرح فى دجلة ، وتقدّم إلى بدر ، أن يحمل ما فى داره .

---

١ - جوالق (جمع جُوْلق) اكياس أو زكائب .
٢ - الجصّ : الجير .

ـ ثمّ قال لى : يا شيخ ، أىّ شىء رأيت من أجناس المنكر ، كبيراً كان أو صغيراً ، أو أىّ أمر عنّ لك ، فمر به ، وأنكر المنكر ، ولو على هذا ـ وأومأ إلى بدر ـ فإن جرى عليك شىء ، أو لم يقبل منك ، فالعلامة بيننا أن تؤذّن فى مثل الوقت الّذى أذّنت فيه ، فإنّى أسمع صوتك ، وأستدعيك ، وأفعل هذا بمن لا يقبل منك .

فدعوت له ، وانصرفت .

وانتشر الخبر فى الأولياء والغلمان . فما خاطبت أحداً بعدها فى إنصاف أحد ، أو كفّ عن قبيح إلاّ أطاعنى كما رأيت ، خوفاً من المعتضد .

وما احتجت إلى الأذان فى مثل ذلك الوقت .

■ ■ ■

معاينة طبية

دخلت يوماً على القاضي أبي الحسين بن أبي عمر ، وهو مغموم ، فقلت : لا يغمّ الله قاضي القضاة ، ما هذا الحزن الذي أراه به ؟

قال : مات يزيد المائي [1] .

فقلت : يُبقي الله قاضي القضاة ، ومَن يزيد المائيّ ، حتى إذا مات اغتمّ عليه قاضي القضاة ، هذا الغمّ كلّه ؟

فقال : ويحَك ، مثلك يقول هذا في رجل كان أوحد زمانه في صناعته ، وقد مات وما ترك أحداً يقاربه في حذقه ، وهل فخر البلدان إلاّ بكثرة رؤساء الصنائع ، وحذّاق أهل العلوم فيها ؟ فإذا مضى رجل لا مثيل له في صناعة لا بدّ للناس منها ، فهل يدلّ هذا إلاّ على نقصان العالم وانحطاط البلدان .

ثم أقبل يعدّد فضائله ، والأشياء الطريفة التي عالج بها ، والعلل الصعبة التي زالت بتدبيره ، فذكر من ذلك أشياء كثيرة ، منها :

قال : أخبرني منذ مدّة رجل من جلّة أهل البلد ، أنّه كان حدث بابنةٍ له علّة طريفة [2] ؛ فكتَمتْ أمرها ، ثم أطلع عليها أبوها ، فكتمها هو مُديدة ، ثم انتهى أمر البنت إلى حدّ الموت .

قال : وكانت العلّة ، أنّ فرج الصبيّة كان يضرب عليها ضرباً عظيماً لا تنام معه الليل ولا النهار ، وتصرخ أعظم صراخ ، ويجري في خلال ذلك منه دمٌ يسير كماء اللحم ، وليس هناك جرح يظهر ، ولا ورم .

قال : فلمّا خفتُ المأثم ، أحضرت يزيد ، فشاورته .

فقال : أتأذن لي في الكلام ، وتبسط عذري فيه .

فقلت له : نعم .

---

١ ـ المائي : نسبة إلى الماء ، والمقصود هنا : البول ، فعمل هذا الرجل النظر في البول ، أو ما نعرفه الآن بتحليل البول ، وسنرى من هذه القصة ما يدل على خبرة الرجل وفطنته .

٢ ـ الطرافة هنا تعني الندرة .

قال : لا يمكنني أن أصف لك شيئاً ، دون أن أشاهد الموضع بعيني ، وأفتّشه بيدى ، وأسأل المرأة عن أسباب لعلّها كانت الجالبة للعلّة .

قال : فلعظم الصورة ، وبلوغها حدّ التّلف ، أمكنته من ذلك .

فأطال المساءلة ، وحدّثها بما ليس من جنس العلّة . بعد أن جسّ الموضع من ظاهره ، وعرف بقعة الألم ، حتى كدتُ أن أثب به . ثم صبرتُ ، ورجعتُ إلى ما أعرفه عن سيرته ، فصبرت على مضض .

إلى أن قال : تأمر من يمسكها ، ففعلتُ .

فأدخل يده فى الموضع دخولاً شديداً ، فصاحت الجارية ، وأغمى عليها ، وانبعث الدم ، وأخرج يديه وفيها حيوان أقلّ من الخنفساء ، فرمى به .

فجلست الجارية فى الحال ، وقالت : يا أبة ، استرنى ، فقد عوفيت .

فأخذ يزيد الحيوان بيده ، وخرج من الموضع ، فلحقته ، فأجلسته .

وقلت : أخبرنى ما هذا ؟

فقال : إنّ تلك المساءلة التى لم أشكّ من أنّك أنكرتها ، إنّما كانت لأطلب دليلاً أستدلّ به على سبب العلّة .

إلى أن قالت لى الصبيّة : إنّها فى يوم من الأيّام ، جلست فى بيت دولاب البقر [1] ، فى بستان لكم ، ثم حدثت العلّة بها ، من غير سبب تعرفه ، فى غد ذلك اليوم .

فتخيّلت أنّه قد دبّ فى فرجها من القراد [2] الذى يكون على البقر - وفى بيوت البقر قراد - قد تمكّن من أوّل داخل الفرج ، فكلّما امتصّ الدم من موضعه ولّد الضربان ، وأنّه إذا شبع ، خفّ الضربان ، لانقطاع مصّه ، ونقط من الجرح الذى يمتصّ منه إلى خارج الفرج .

فقلت : أدخل يدى ، وأفتّش .

فأدخلت يدى ، فوجدت القراد كما حدست ، فأخرجته ، وهذا هو الحيوان ، وقد تغيّرت صورته لكثرة ما امتصّ من الدم ، مع طول الأيّام .

قال : فتأمّلنا الحيوان ، فإذا هو قراد ، وبرئت المرأة .

---

١ - دولاب البقر : الساقية .

٢ - القرادة : حشرة تلتصق بجلد الحيوان وتعيش على امتصاص دمه .

الحرة ... والجارية

قال محمّد بن عبدوس في كتاب الوزراء : إن إبراهيم بن العباس الصولي ، قال :

كنت أكتب لأحمد بن أبي خالد ، فدخلت عليه يوماً .

فرأيته مطرقاً ، مفكّراً ، مغموماً ، فسألته عن الخبر .

فأخرج إليّ رقعة ، فإذا فيها أنّ حظيّة[1] من أعزّ جواريه عنده يخالَفُ إليها ، وتوطىء فراشه غيره ، ويستشهد في الرقعة ، بخادمين كانا ثقتين عنده .

وقال لي : دعوت الخادمين ، فسألتهما عن ذلك ، فأنكرا ، فتهدّدتهما ، فأقاما على الإنكار ، فضربتهما ، وأحضرت لهما آلة العذاب ، فاعترفا بكلّ ما في الرقعة على الجارية ، وإنّي لم أذق أمس ولا اليوم طعاماً ، وقد هممت بقتل الجارية .

فوجدت بين يديه مصحفاً ، ففتحته لأتفاءل بما يخرج فيه ، فكان أوّل ما وقعت عيني عليه : يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا . . . . الآية ، فشككت في صحّة الحديث ، وأريته ما خرج به الفأل .

وقلت : دعني أتلطّف في كشف هذا .

قال : افعل .

فخلوت بالخادمين منفردين ، ورفقت بأحدهما ، فقال : النار ولا العار ، وذكر أنّ امرأة ابن أبي خالد ، أعطته ألف دينار ، وسألته الشهادة على الجارية ، وأحضرني الكيس مختوماً بخاتم المرأة ، وأمَرَتْهُ أن لا يذكر شيئاً إلاّ بعد أن يوقع به المكروه ، ليكون أثبت للخبر ، ودعوت الآخر ، فاعترف بمثل ذلك أيضاً .

فبادرت إلى أحمد بالبشارة ، فما وصلت إليه ، حتى جاءته[2] رقعة الحرّة ، تعلمه أنّ الرقعة الأولى كانت من فعلها ، غيرة عليه من الجارية ، وأنّ جميع ما فيها باطل ، وأنّها حملت الخادمين على ذلك ، وأنّها تائبة إلى الله تعالى من هذا الفعل وأمثاله .

فجاءته براءة الجارية من كلّ وجه فسرّ بذلك ، وزال عنه ما كان فيه ، وأحسن إلى الجارية .

---

١ ـ الحظية : الجارية المخصصة لإمتاع سيدها ، فليست للخدمة .

٢ ـ الرقعة : قصاصة الورق ، أو الرسالة .

والقضية .. جارية !!

وقد كان فيما يقارب عصرنا مثل هذا ، وهو ما حدّثنى به أبو الحسن على بن عمر الدارقطنى الحافظ ، قال : حدّثنى أبو أحمد محمّد بن أحمد الجرجانى الفقيه ، قال :

كنّا ندرس على أبى إسحاق المروزى الشافعي ، وكان يدرس عليه معنا فتى من أهل خراسان ، له والد هناك ، وكان يوجّه إليه فى كلّ سنة ، مع الحاجّ ، قدر نفقة السنة .

فاشترى جارية ، فوقعت في نفسه ، وألفها ، وألفته ، وكانت معه سنين .

وكان رسمه أن يستدين فى كلّ سنة ، ديناً ، بقدر ما يعجز من نفقته ، فإذا جاء ما أنفذه أبوه إليه ، قضى دينه ، وأنفق الباقى مدّة ثم عاد إلى الاستدانة .

فلمّاكان سنة من السنين ، جاء الحاجّ ، وليس معهم نفقة من أبيه .

فسألهم عن سبب ذلك ، فقالوا له : إنّ أباك أعتلّ علّة عظيمة صعبة ، واشتغل بنفسه ، فلم يتمكّن من إنفاذ شيء إليك .

قال : فقلق الفتى قلقاً شديداً ، وجعل غرماؤه يطالبونه كالعادة ، فى قضاء الدين وقت الموسم ، فاضطرّ ، وأخرج الجارية إلى النخّاسين [1] ، فعرضها .

وكان الفتى ينزل بالقرب من منزلى ، وكنّا نصطحب إلى منزل الفقيه ، ولا نكاد نتفارق .

فباع الجارية بألف درهم وكَسْر ، وعزم على أن يفرّق منها على غرمائه [2] قدر مالهم ، ويتموّن بالباقى .

وكان قلقاً ، موجعاً ، متحيّراً ، عند رجوعنا من النخّاسين .

فلمّا كان الليل إذا ببابى يدقّ ، فقمت ففتحته ، فإذا بالفتى .

فقلت : مالك ؟

---

١ ـ النخّاس : تاجر الرقيق ، الذى يبيع ويشترى العبيد والإماء ، والعبارة تعنى : عرض الجارية للبيع .

٢ ـ الغرماء : أصحاب الدين المستحق للسداد .

فقال : قد امتنع عليّ النوم ، وقد غلبتنى وحشة الجارية ، والشوق إليها
ووجدته من القلق على أمر عظيم ، حتى أنكرت عقله ، فقلت : ما تشاء ؟

فقال : لا أدري ، وقد سهل عليّ أن ترجع الجارية إلى ملكى ، وأبكّر غداً فأقرّ لغرمائى بمالهم ، وأحبس فى حبس القاضى ، إلى أن يفرّج الله تعالى عنّى ، ويجيئنى من خراسان ما أقضى به دينى فى العام المقبل ، وتكون الجارية فى ملكى .

فقلت له : أنا أكفيك ذلك فى غد إن شاء الله ، وأعمل فى رجوع الجارية إليك ، إذا كنت قد وطّنت نفسك على هذا .

قال : فبكّرنا إلى السوق ، فسألنا عمّن اشترى الجارية .

فقالوا : امرأة من دار أبى بكر بن أبى حامد ، صاحب بيت المال [1] .

فجئنا إلى مجلس الفقيه ، فشرحتُ لأبى إسحاق المروزى بعض حديث الفتى ، وسألته أن يكتب رقعة إلى أبى بكر بن أبى حامد ، يسأله فيها فسخ البيع ، والإقالة [2] ، وأخذ الثمن ، وردّ الجارية ، فكتب رقعة مؤكّدة فى ذلك .

فقمتُ ، وأخذتُ بيد الخراسانى صديقى ، وجئنا إلى أبى بكر بن أبى حامد ، فإذا هو فى مجلس حافل ، فأمهلنا حتى خفّ ، ثم دنوت أنا والفتى ، فعرفنى ، وسألنى عن أبى إسحاق المروزىّ ، فقلت : هذه رقعته خاصّة فى حاجة له .

فلمّا قرأها ، قال لى : أنت صاحب الجارية ؟

قلت : لا ، ولكنّه صديقى هذا ، وأومأتُ إلى الخراسانى ، وقصصت عليه القصّة ، وسبب بيع الجارية .

فقال : والله ، ما أعلم أنّى ابتعت جارية فى هذه الأيّام ، ولا ابتيعت لى .

فقلت : إنّ امرأة جاءت وابتاعتها ، وذكرت أنّها من دارك .

قال : يجوز .

ثم قال : يا فلان ، فجاءه خادم ، فقال له : امض إلى دور الحرم ، فاسأل عن جارية اشتريت أمس ، فلم يزل يدخل ويخرج من دار إلى دار ، حتى وقع عليها ، فرجع إليه .

---

١ ـ صاحب بيت المال هو وزير الخزانة الآن .
٢ ـ الإقالة قبول عذر الفتى ، وإعادة الجارية إليه بعد استرداد ثمنها .

فقال له : أعثرت عليها ؟

فقال : نعم ، فقال : أحضرها ، فأحضرها .

فقال لها : من مولاك ؟ فأومأت إلى الخراسانى .

فقال لها : أفتحبّين أن أردك عليه ؟

فقالت : والله ، ليس مثلك يا مولاى من يختار عليه ، ولكن لمولاى علىّ حقّ التربية .

فقال : هى كيّسة عاقلة ، خذها .

قال : فأخرج الخراسانى الكيس من كمّه ، وتركه بحضرته .

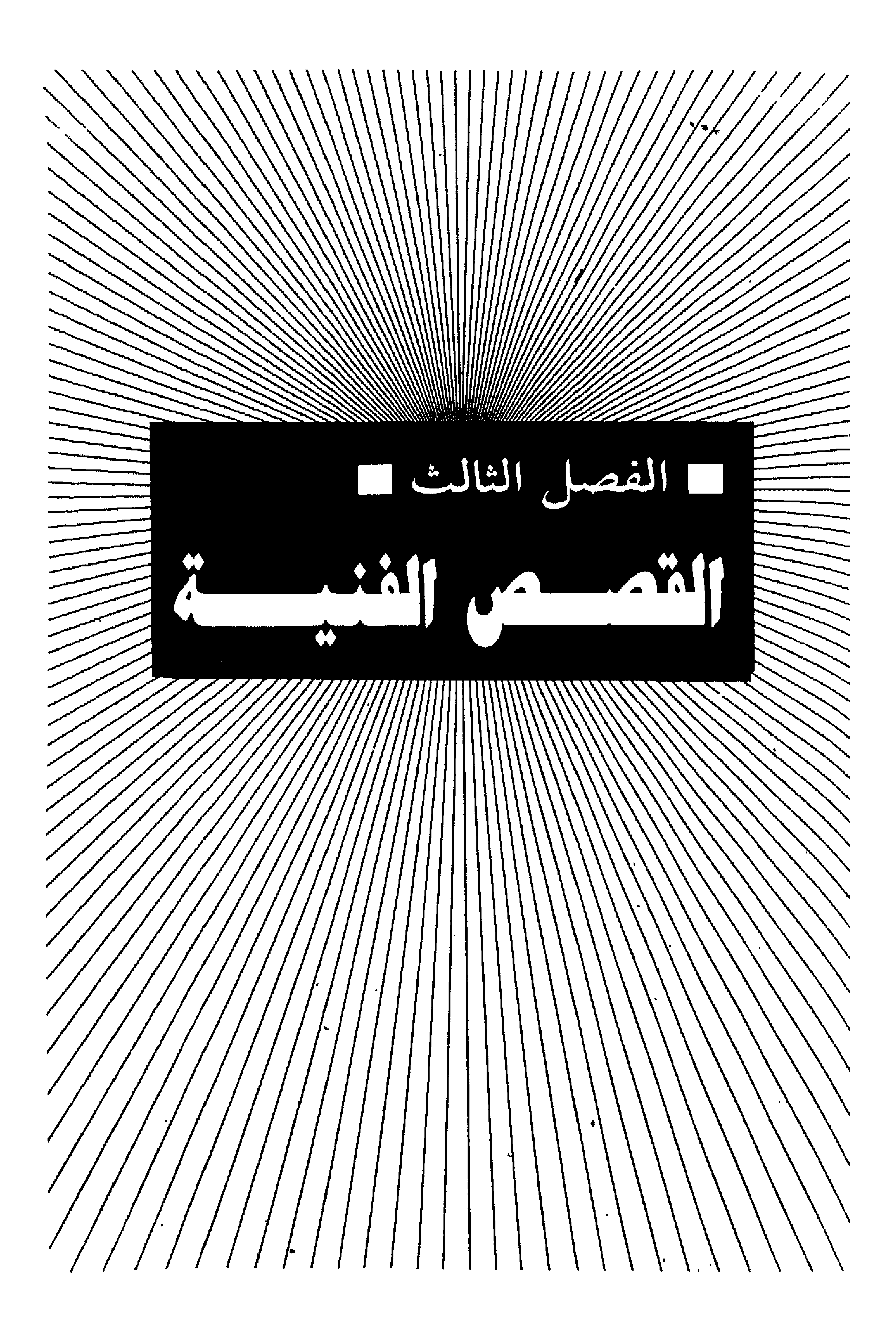
فقال للخادم : إمض إلى الحرم ، وقل لهنّ : ما كنتنّ وعدتنّ به هذه الجارية من إحسان ، فعجلّنه الساعة .

قال : فجاء الخادم بأشياء لها قدر وقيمة ، فدفعها إليها .

ثم قال للخراسانى : خذ كيسك فاقض منه دينك ، ووسّع بباقيه على نفسك وعلى جاريتك ، والزم العلم ، فقد أجريت عليك فى كلّ شهر قفيز دقيق ، ودينارين ، تستعين بها على أمرك .

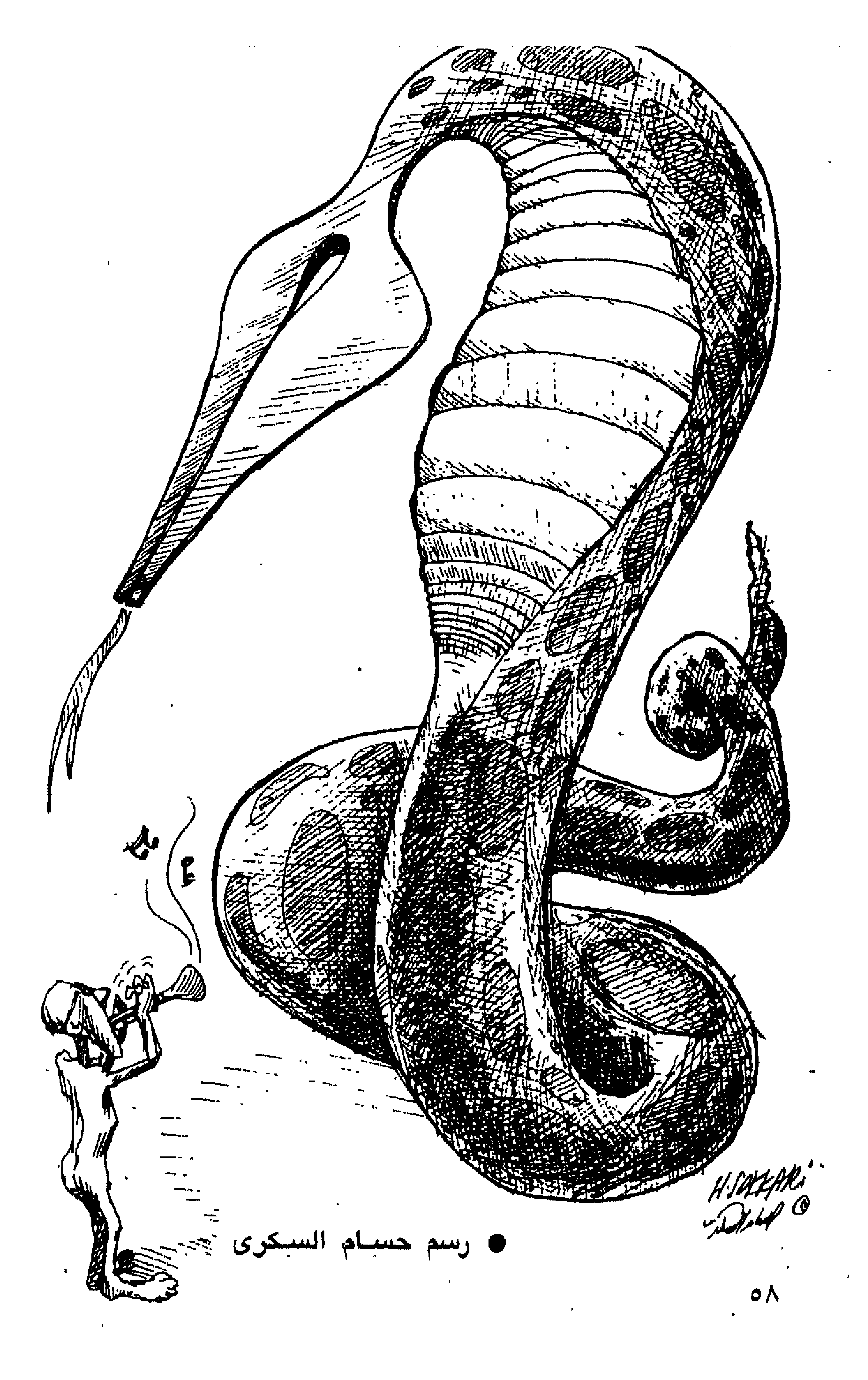
قال : فوالله ما انقطعت عن الفتى ، حتى مات أبو بكر بن أبى حامد .

■ ■ ■



▪ الفصل الثالث ▪

القصص الفنية



● رسم حسام السكرى

ليلة صعبة

حدّثني عبد الله بن محمّد بن داسه البصري رحمه الله ، قال : حدّثني أبو يحيى بن مكرم ، القاضي البغدادي ، قال : حدّثني أبي ، قال :

كان في جواري ، رجل يعرف بأبي عبيدة ، حسن الأدب ، كثير الرواية للأخبار ، وكان قديماً ينادم إسحاق ابن إبراهيم المصعبي [1] ، فحدّثني : أنّ إسحاق استدعاه ذات ليلة ، في نصف الليل .

قال : فهالني ذلك ، وأفزعني ، لما كنت أعرفه منه ، من زعارة الأخلاق ، وشدّة الإسراع إلى القتل ، وخفت أن يكون قد نقم عليّ شيئاً في العشرة ، أو بلغ عنّي باطلاً ، فأحفظه ، فيسرع إلى قتلي ، قبل كشف حالي .

فخرجت طائر العقل ، حتى أتيت داره ، فأدخلت إلى بعض دور الحرم ، فاشتدّ جزعي ، وذهب عليّ أمري .

فانتهى بي إليه ، وهو في حجرة لطيفة ، فسمعت في دهليزها بكاء امرأة ونحيبها ، ودخلت ، فإذا هو جالس على كرسي ، وبيده سيف مسلول ، وهو مطرق ، فأيقنت بالقتل .

فسلّمت ، ووقفت ، فرفع رأسه وقال : اجلس أبا عبيدة ، فسكن روعي ، وجلست .

فرمى إليّ رقاعاً [2] كانت بين يديه ، وقال : اقرأ هذه .

فقرأت جميعها ، فإذا رقاع أصحاب الشرط في الأرباع [3] ، يخبره كلّ واحد منهم بخبر يومه ، وما جرى في عمله ، وفي جميعها ذكر كبسات وقعت على نساء وجدن على فساد ، من بنات الوزراء ، والأمراء ، والأجلّاء ، الذين بادوا ، أو ذهبت مراتبهم ، ويستأذنون في أمرهنّ .

---

١ ـ إسحاق المصعبي قائد شرطة بغداد .

٢ ـ قصاصات ورق ، أو هي في الحقيقة تقارير وبلاغات الشرطة .

٣ ـ كانت بغداد مقسمة إلى أربعة أقسام ، وفي القاهرة إلى الآن من يعبر عن قسم الشرطة « بالتمن » لأن القاهرة كانت مقسمة ثمانية أقسام أمنية .

فقلت : قد وقفت على هذه الرقاع ، فما يأمرنى به الأمير أعزّه الله ؟

فقال : ويحك يا أبا عبيدة ، هؤلاء الناس الذين ورد ذكر حال بناتهم ، كلّهم كانوا أجلّ منّى ، أو مثلى ، وقد أفضى بهم الدهر فى حرمهم إلى ما قد سمعت ، وقد وقع لى أنّ بناتى بعدى ، سيبلغن هذا المبلغ ، وقد جمعتهنّ - وهنّ خمس - فى هذه الحجرة ، لأقتلهنّ الساعة ، وأستريح ، ثم أدركتنى رقّة البشريّة ، والخوف من الله تعالى ، فأردت أن أشاورك فى إمضاء الرأى ، أو شىء تشير به علىّ فيهنّ .

فقلت : أصلح الله الأمير ، إنّ آباء هؤلاء النساء اللواتى قرأت رقاع أصحاب الأخبار بما جرى عليهنّ ، أخطأوا فى تدبيرهنّ ، لأنّهم خلّفوا عليهنّ النعم ، ولم يحفظوهنّ بالأزواج ، فخلون بأنفسهنّ ، ونعمهنّ ، ففسدن ، ولو كانوا جعلوهنّ فى أعناق الأكفاء ، ما جرى منهنّ هذا .

والذى أرى أن تستدعى فلاناً القائد ، فله خمسة بنين ، كلّهم جميل الوجه ، حسن اللبس والنشوة ، فتزوّج كل واحدة من بناتك ، واحداً منهم ، فتكفى العار والنار ، وتكون قد أخذت بأمر الله عزّ وجلّ ، والحزم ، ويراك الله تعالى قد أردت طاعته فى حفظهنّ ، فيحفظك فيهنّ .

فقال : امض الساعة إليه ، فقرر معه ما يكون لنا فيه المصلحة ، وافرغ لى معه من هذا الأمر .

قال : فمضيت إلى الرجل ، وقررت الأمر معه ، وأخذت الفتيان ، وأباهم ، وجئت إلى دار إسحاق بن إبراهيم ، وعقدت النكاح لهم ، على بنات إسحاق ، فى خطبة واحدة ، وجعل إسحاق بين يدى كلّ واحد منهم ، خمسة آلاف درهم عينا ، وشيئاً كثيراً من الطيب ، والثياب ، وحمل كلاً منهم على فرس بمركب ذهب ، وأعطانى كلّ واحد من الأزواج مالاً مما دفع إليه ، وأمر لى إسحاق بخمسمائة دينار ، وخلعة ، وطيب .

وأنفذ إلىّ أمّهات البنات هدايا وأموالاً جليلة ، وشكرننى على تخليص بناتهن من القتل ، وانقلبت تلك الغمّة فرحاً .

فعدت إلى دارى ، ومعى ما قيمته ثلاثة آلاف دينار وأكثر [1] .

---

١ ـ كان المصعبى فظا دمويا ، وهذا واضح فى خوف نديمه منه ، ومع هذا لجأ إليه ليجد له حلاً فى المشكلة . والوجه الاجتماعى ظاهر فى موقع المرأة ، وضياعها فى غياب الولى ، وسلوك أجهزة الأمن تجاه خطايا الكبراء .. إلخ .

ليلة يشيب لها الغراب

كان في دار المقتدر بالله ، عريف على بعض الفرّاشين ، يخدمني وصافياً إذا أقمنا في دار الخليفة ، ففقدته في الدّار ، وظننته عليلاً ، فلمّا كان بعد شهور ، رأيته في بعض الطرق ، بزيّ التجّار ، وقد شاب .

فقلت : فلان ؟

قال : نعم ، عبدك يا سيّدي .

فقلت : ما هذا الشّيب في هذه الشهور اليسيرة ، وما هذا الزيّ ؟ وأين كنت ؟ فلجلج .

فقلت لغلماني : احملوه إلى داري ، وقلت : حدّثني حديثك .

فقال : على أنّ لي الأمان والكتمان .

فقلت : نعم .

فقال : كان الرّسم الّذي تعرفه على كلّ عريف في الدّار من الفرّاشين ، أن يدخل يوماً من الأيام ، هو ومن معه في عرافته ، إلى دور الحرم ، لرشّ الخيوش الّتي فيها [1] .

فبلغت النّوبة إليّ ، في يوم كنت فيه مخموراً ، فدخلتُ ، ومعي رجالي ، إلى دار فلانة - وذكر حظيّة جليلة من حظايا المقتدر بالله - لرشّ الخيش .

فلعظم ما كنت فيه من الخُمار ، ما رششت قربتي ، ولم أخرج بخروج الرّجال ، وقلت لهم : امضوا ، فهاتوا قربكم لإتمام الرشّ ، فإذا رششتموها فأنبهوني ، فإنّي نائم هنا .

ودخلت خلف الخيش ، إلى باب بادهنج [2] تخرج منه ريح طيّبة ، فنمت ، وغلب عليّ النّوم ، إلى أن جاء الفرّاشون ، وفرغوا من رش الخيش ، وخرجوا ، ولم ينبهوني .

---

١ - دار الحرم : جناح النساء في قصر الخلافة . ورش الخيوش ، أو رش الخيش لتبريد الجو ، فكانت تعلق ستائر ترش بالماء كنوع من ترطيب الصيف الحار .

٢ - البادهنج : فارسية : الممر الذي يسلكه الهواء بعد ترطيب الخيش ، لتلطيف الجو .

وتمادى بى النّوم ، فما انتبهت إلاّ بحركة فى الخيش ، فقمت ، فإذا أنا قد أمسيت ، وإذا صوت نساء فى الخيش ، فعلمت أنى مقتول إن أحسّ بى ، وتحيّرت فلم أدر ما أعمل ، فدخلت البادهنج ، وكان صيْفاً ، فجعلت رجلىّ على حائطى البادهنج وتسلّقت فيه ، ووقفت معلّقاً ، أترقّب أن يُفطن لى ، فأقتل .

وإذا بنسوة فرّاشات يكنسن الخيش ، فلمّا فرغن من ذلك فرشنه ، وعبىّ فيه مجلس الشّراب .

ولم يكن بأسرع من أن جاء المقتدر بالله ، وعدّة جوارى ، فجلس وجلسن ، وأخذ الجوارى فى الغناء ، وأنا أسمع ذلك كلّه ، وروحى تكاد تخرج ، فإذا أعييت ، نزلت فجلست فى أرض البادهنج ، فإذا استرحتُ ، وخفت أن يفطن بى ، عدت فتسلّقت ، إلى أن مضت قطعة من اللّيل ، ثمّ عنّ للمقتدر أن جذب إليه حظيّته الّتى هى صاحبة تلك الدّار ، فانصرف باقى الجوارى ، وخلا الموضع ، فواقع المقتدر بالله الجارية ، وأنا أسمع حركتهما وكلامهما ، ثمّ ناما فى مكانهما ، ولا سبيل لى إلى النّوم لحظة واحدة ، لما أقاسى من الخوف .

ففكّرت فى أن أخرج وأصعد إلى بعض السطوح ، ثمّ علمت أنّى إن فعلت ذلك ، تعجّلت القتل ، ولم يجز أن أنجو .

فلم تزل حالى تلك إلى أن انتبه المقتدر بالله فى السّحر ، وخرج من الموضع .

فلمّا كان من غدٍ نصف النّهار ، جاء عريف آخر من الفرّاشين ، ومعه رجاله ، فرشّوا الخيش ، فخرجت فاختلطت بهم .

فقالوا : أيش تعمل ها هنا ؟

فأومأت إليهم بالسّكوت ، وقلت : الله ، الله ، فى دمى ، فإنّ حديثى طويل ، فتذمّموا أن يفضحونى .

وقال بعضهم : ما بال لحيتك قد شابت ؟

فقلت : لا أعلم ، وأخذت ماء من قربة بعضهم ، فرطّبت به قربتى ، وخرجت بخروجهم .

فلمّا صرت فى موضع من دار الخليفة ، وقعت مغشياً علىّ ، وركبتنى حمّى عظيمة وذهب عقلى ، فحملنى الفرّاشون إلى منزلى ، وأنا لا أعقل ، فأقمت مبرسماً (1) مدّة طويلة .

---

1 - مبرسم : تحريف لكلمة معناها : مريض .

وقد كنت عاهدت الله تعالى ، وأنا في البادهنج ، إن هو خلّصني ، أن لا أخدم أحداً أبداً ، ولا أشرب النّبيذ ، وأقلعت عن أشياء تبت منها .

فلمّا تفضّل الله تعالى بالعافية ، وفيت بالنّذر ، وبعت أشياء كانت لي ، وضممتها إلى دراهم كانت عندي ، ولزمت دكّاناً لحميّ [1] أتعلّم فيه التّجارة معه ، وأتّجر ، وتركت الدّار ، فما عدت إليها إلى الآن ، ولا أعود أبداً إلى خدمة الناس ، ولا أنقض ما تبت منه .

قال : ورأيت لحيته وقد كثر فيها الشّيب .

■ ■ ■

---

١ ـ الحميّ . والد الزوجة .

منتهى الثقة : الأمير والوزير

أخبرنى أبو الفرج الأصبهانى ، قال : حدّثنى يحيى بن علىّ المنجّم ، قال حدّثنى أبى عن إسحق بنَ إبراهيم الموصلى ، قال :

لم أر قطّ مثل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، كانت له فتوّة ، وظرف ، وأدب ، وحسن غناء ، وضرب بالطبل ، وكان يأخذ بأجزل حظّ ، من كلّ فنّ .

فحضرتُ باب الرّشيد يوماً ، وكان الرشيد نائماً ، فوافى جعفر ، فقلت له : إنّه نائم ، فرجع ، وقال : سرْ بنا إلى المنزل ، حتّى نخلو جميعاً بقيّة يومنا ، فأغنّيك ، وتغنّينى ، ونأخذ فى شأننا ، من وقتنا هذا .

فقلت : نعم .

فسرنا إلى مجلسه ، فطرحنا ثيابنا ، ودعا بالطعام ، فأكلنا ، وأمر بإخراج الجوارى ، وقال : ليبرزن ، فليس عندنا من نحتشمه .

فلمّا رفع الطعام ، وجيء بالشراب ، دعا بقميص حرير فلبسه ، ودعا لى بمثله ، ودعا بخلوق [1] ، فتخلّق ، وخلّقنى ، وجعل يغنينى ، وأغنّيه .

وكان قد دعا بالحاجب ، فتقدّم إليه أن لا يأذَن لأحد من النّاس كلّهم ، وإن جاء رسول أمير المؤمنين ، فأعلمه أنّى مشغول ، واحتاط فى ذلك ، وتقدّم فيه إلى جميع الحجّاب والخدم .

ثمّ قال : إن جاء عبد الملك ، فأذنوا له ، يعنى رجلاً كان يأنس به ، ويمازحه ، ويحضره خلواته [2] ، ثمّ أخذنا فى شأننا .

فبينما نحن على حالة سارّة ، إذ رفع الستر ، فإذا عبد الملك بن صالح الهاشمىّ قد أقبل ، وغلط الحاجب ، فلم يفرّق بينه وبين عبد الملك الّذى يأنس به جعفر .

وكان عبد الملك هذا من جلالة القدر والتقشّف ، على حالة معروفة ، حتّى إنّه كان يمتنع من منادمة الخليفة ، على اجتهاد من الخليفة أن يشرب معه قدحاً واحداً ، فلم يفعل ، ترفّعاً .

---

١ ـ الخلوق : الطيب والبخور .

٢ ـ فهذا من تقاليد كبراء القوم ، لهم خلوات مع خاصة الأصدقاء فى وقت معلوم .

فلمّا رأيناه مقبلاً ، أقبل كلّ واحد منّا ينظر إلى صاحبه ، وكاد جعفر أن تنشقّ مرارته غيظاً .

وفهم الرّجل حالنا ، فأقبل نحونا ، حتّى صار إلى الرّواق الّذى نحن فيه ، فنزع قلنسوته ، فرمى بها مع طليسانه جانباً ، ثمّ قال : أطعمونا شيئاً .

فدعا له جعفر بطعام ، وهو منتفخ غيظاً وغضباً ، فأكل ، ثمّ دعا برطل [1] فشربه .

ثمّ أقبل إلى المجلس الّذى كنّا فيه ، فأخذ بعضادتى الباب ، ثمّ قال : أشركونا فيما أنتم فيه .

فقال جعفر : ادخل ، فدخل فدعا له بقميص حرير وخلوق ، فلبس ، وتخلّق ، ثمّ دعا برطل ، ورطل حتّى شرب ثلاثة أرطال ، ثمّ اندفع يغنّينا ، فكان - والله - أحسننا غناءً .

فلمّا طابت نفس جعفر ، وسرى عنه ما كان به ، التفت إليه ، وقال : ارفع حوائجك .

فقال : ليس هذا موضع حوائج .

فقال : أقسم عليك ، لتفعلنّ .

ولم يزل يلحّ عليه حتّى قال له : أمير المؤمنين واجدُ [2] علىّ كما قد علمت ، فأحبّ أن تترضّاه .

قال : فإنّ أمير المؤمنين قد رضى عنك ، فهات حوائجك ، كما أقول لك .

قال : علىّ دين فادح .

قال : كم مبلغه ؟

قال : أربعة آلاف ألف درهم .

قال : هذه أربعة آلاف درهم ، فإن أحببت قبضها ، قبضتها الساعة ، فإنّه لا يمنعنى من إعطائك إلاّ أنّ قدرك يجلّ عندى أن يصلك مثلى ، ولكنّى ضامن لها ، حتّى تحمل لك فى غد ، من مال أمير المؤمنين ، فسل أيضاً .

قال : تكلّم أمير المؤمنين حتّى ينوّه باسم ابنى .

---

١ - اى رطل من النبيذ .

٢ - اى فى نفسه شىء منى ، متغيّر علىّ .

قال : ولّاه أمير المؤمنين مصر ، وزوّجه ابنته الغالية ، ومهرها عنه ألفي ألف درهم .

قال إسحاق : فقلتُ في نفسي ، قد سكر الرّجل - يعني جعفر - .

فلمّا أصبحنا ، حضرتُ دار الرّشيد ، فإذا بجعفر بين يديه ، ووجدت في الدار جلبة ، فإذا بأبي يوسف القاضي ونظرائه ، وقد دعى بهم ، ثم دعى بعبد الملك وابنه ، فدخلا على الرّشيد .

فقال الرّشيد لعبد الملك : إنّ أمير المؤمنين كان واجداً عليك ، وقد رضي عنك ، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم ، فخذها من جعفر السّاعة .

ثمّ دعا بابنه ، وقال : اشهدوا عليّ أنّني قد زوّجته ابنتي الغالية ، ومهرتها عنه ألف درهم ، وولّيته مصر .

فلمّا خرج جعفر سألته عن الخبر ، فقال : بكّرت إلى دار الرّشيد ، فحكيت له جميع ما جرى حرفاً حرفاً ، ووصفت له دخول عبد الملك وما صنع ، فعجب منه ، وسرّ به .

فقلت له : وقد ضمنت له عن أمير المؤمنين ضماناً .

فقال : ما هو ؟ فأعلمته .

فقال : نفي له بضمانك ، وأمر بإحضاره ، فكان ما رأيت .

■ ■ ■

ثمن العناد

حدّثني شيخ من البصريّين ، أثق به ، قال : عادلت [1] فلاناً القاضي - إلى الحج .

قال : وتشاجر رجلان ، في الرقعة الّتي كنّت فيها من القافلة .

قال : وجذبهما ذلك القاضي إليه ، ولم يزل يتوسّط بينهما ويترفّق بهما ، وقد استعمل كلّ واحد منهما اللّجاج والمشاحنة ، وأقاما عليها ، وهو يصبر عليهما ، ويقول : اللّجاج شؤم ، فلا تستعملاه . ويكرّر هذه اللّفظة ، إلى أن فصل بينهما .

فقال لي : أذْكِرْني حديثاً في اللّجاج ، جرى على يدي ، لك فيه ، ولكلّ من سمعه ، أدب .

قال : فأذكرته بعد وقت .

فقال : كنت أتولّى القضاء ، في البلد الفلاني ، فتقدّم إليّ رجلان ، فادّعى أحدهما على الآخر عشرين ديناراً .

فقلت للمدّعى عليه : ما تقول ؟ .

فقال : له عليّ ذلك ، إلاّ أنّي عبدلآل فلان ، مُكاتب [2] ، مأذون لي في التصرّف ، واتّجرت ، فخسرت ، وليس معي ما أعطيه ، وقد عاملني هذا الرّجل سنين كثيرة ، وربح عليّ أضعاف هذه الدنانير مراراً ، فإن رأى القاضي أن يسأله الرّفق بي ، فإنّي عبدٌ ، وضعيف ، ولا حيلة لي .

فسألته أن يرفق به ، ويؤخّره ، فامتنع .

فقلتُ : قد سمعتَ .

فقال : ما لي حيلة .

فقال الرّجل : احبسه لي .

فعاد العبد يسألني ، فسألته أن لا يفعل ، وبكى العبد ، فرققت له ، وسألت

---

١ - عادله أي جلس في مقابله ليوازنه ، فوق الجمل .

٢ - العبد المكاتب هو الذى فرض عليه سيده قدرا من المال ، إذا أداه إليه نال حريته ، وعتق .

خصمه أن لا يحبسه ، وأن ينظره [١] .

فقال : لا أفعل .

فقال العبد : إن حبسني أهلكني ، ووالله ما أرجع إلى شيء ، وإنّه ليضايقني ، ويلجّ في أمري ، وقد انتفع منّي بأضعاف هذه الدنانير ، وورث منذ أيّام من أخي ألوف دنانير ، فأشير عليّ بمنازعته إلى القاضي في الميراث ، فلم أفعل .

قال : فحين قال ذلك ، توجّه لي وجه طمع في خلاصه من لجاج ذلك الغريم ، وقد كان غاظني بلجاجه ومحكه [٢] .

فقلت : كيف ورث أخاك ، وأردت منازعته ؟ .

فقال : إنّ أخي كان عبداً له ، مأذوناً له في التصرّف ، وكان يتّجر ويتصرّف ، ويؤدي إليه ضريبته ، وجمع مالاً وأمتعةً ، بأكثر من ثلاثة آلاف دينار ، ثمّ مات ، ولم يخلّف أحداً غيري ، وأنا رجل ضعيف ، مملوك ، ولي ابنان طفلان من امرأة حرّة ، وهما حرّان ، فأنا أعولهما ، وأعول نفسي ، وزوجتي ، وأؤدّي إلى مولاي ضريبته فطمعت في أن أنازعه في الميراث ، وآخذ شيئاً أعود به على نفسي ، وأولادي ، وعيالي ، فقيل لي : إنّك لا ترث ، فلم أحبّ منازعته ، صيانة له ، وهو الآن يضايقني .

قال : فقلت للرّجل : هو كما قال ، إنّ أخاه كان عبدك ، ومات ، وخلّف عليك تركة قيمتها ثلاثة آلاف دينار ؟ .

قال : نعم .

فقلت له : ولهذا العبد طفلان حرّان ؟ .

قال : نعم .

فقلت : قم ، فأخّره بالدنانير ولا تطالبه بها .

فقال : ما أبرح إلاّ بالدّنانير ، أو بحبسه .

---

١ - ينظره : يؤجله ، أي يوجل سداد الدين .

٢ - المحك ، والمماحكة ، المضايقة .

فقلت : اقبل رأيى ، ولا تلج [1] .

فقال : لا أفعل .

فقلت : إنّك متى لم تفعل ، خرج من يدك مال جليل .

فقال : لا أفعل .

قال : فقلت للعبد : قد أذنت لك أن تتكلّم عن ابنيك الطفلين ، وهما - على مذهب عبد الله بن مسعود ، وهو مذهبى - أحقّ بالميراث من مولاه ، وإن كنت أنتَ حيّاً ، فإنّك بمنزلة الميت للعبوديّة ، فطالبه عن ابنيك الحرّين الطفلين بالتركة .

قال : فطالبه بها .

فأحضرت الشهود ، فأعاد الخصومة ، والدعوى ، ولم أزل بالمولى ، حتّى أسمعت الشهود إقراره بما كان أقرّ به عندى ، ثمّ حكمتُ للابنين الطفلين بالتركة ، وانتزعت جميعها من يده ، وسلّمت إليه منها عشرين ديناراً ، لما أقرّ له العبد به ، وجعلت ذلك ديناً عليه لابنيه .

وسلّمت مقدار ثمن العبد ، من مال الطفلين ، إلى أمين من أمنائى ، وقلت : اشتر أباهما من مولاه بهذه الدنانير ، واعتقه عليهما ، ففعل .

وجعلت باقى مال الطفلين فى يد أبيهما ، وأمين جعلته عليه مشرفاً ، وأمرت الأب أن يتّجر لهما بالمال ، ويأخذ ثلث الرّبح ، بحق قيامه ، وحكمت بالجميع ، وأشهدت على إنفاذى الحكم له الشهودَ .

فقام العبد ، وهو فرحان ، وقد فرّج الله عنه ، وآمنه أن يحبس ، وعتقت رقبته ، وصار موسراً .

وقام اللّجوج خاسراً حائراً ، وقد أخذ عشرين ديناراً ، وأعطى ثلاثة آلاف دينار [2] .

■ ■ ■

---

١ - لج ، يلج يعاند ويبالغ فى الخصومة .

٢ - ركبت هذه القصة بذكاء ليحصل الطيب على الفرح والفرج ، ويعود الفظ بالخسران وفيها مصادفات وتعسف نسبى ، كزواج العبد من امرأة حرة ، وأن يأخذ القاضى بقول عبد الله بن مسعود فى ميراث العبد المتوفى .

يحلم لغيره

كان فى جوار القاضى قديماً ، رجلٌ انتشرت عنه حكاية ،
وظهر فى يده مال جليل ، بعد فقر طويل ، وكنت أسمع
أنّ أبا عمر حماه من السلطان ، فسألت عن الحكاية ،
فدافعنى طويلاً ، ثمّ حدّثنى ، قال :

ورثت عن أبى مالاً جليلاً ، فأسرعت فيه [1] ،
وأتلفته ، حتى أفضيت إلى بيع أبواب دارى وسقوفها ،
ولم يبق لى من الدنيا حيلة ، وبقيتُ مدّة بلا قوت إلاّ من غزل أمّى . فتمنّيت الموت .

فرأيت ليلة فى النّوم ، كأنّ قائلاً يقول لى : غناك بمصر ، فاخرج إليها ،
فبكرت إلى أبى عمر القاضى ، وتوسّلت إليه بالجوار ، وبخدمة كانت من أبى لأبيه ، وسألته أن يزوّدنى كتاباً إلى مصر ، لأتصرف [2] بها ، ففعل ، وخرجت .

فلمّا حصلتُ بمصر ، أوصلتُ الكتابَ ، وسألتُ التصرّف ، فسدّ الله علىّ الوجوه حتّى لم أظفر بتصرّف ، ولا لاح لى شغل .

ونفدت نفقتى ، فبقيت متحيّراً ، وفكّرت فى أن أسأل النّاس ، وأمدّ يدى على الطريق ، فلم تسمح نفسى ، فقلت : أخرج ليلاً ، وأسأل ، فخرجت بين العشاءين ، فما زلت أمشى فى الطّريق ، وتأبى نفسى المسألة ، ويحملنى الجوع عليها ، وأنا ممتنع ، إلى أن مضى صدر من اللّيل .

فلقينى الطّائف [3] ، فقبض علىّ ، ووجدنى غريباً ، فأنكر حالى ، فسألنى عن خبرى ، فقلت : رجل ضعيف ، فلم يصدقنى ، وبطحنى ، وضربنى مقارع .

فصحت : أنا أصدقك .

فقال : هات .

فقصصت عليه قصّتى من أوّلها إلى آخرها ، وحديث المنام .

---

١ - أسرعت فيه : أسرعت فى انفاقه ، أسرفت .
٢ - اتصرف . اوظف .
٣ - الطائف : الحرس الليلى المتحرك ، الذى يطوف بالمدينة .

فقال لى : أنت رجل ما رأيت أحمق منك ، والله لقد رأيتُ منذ كذا وكذا سنة ، فى النّوم ، كأنّ رجلاً يقول لى : ببغداد فى الشّارع الفلانى ، فى المحلّة الفلانية - فذكر شارعى ، ومحلّتى ، فسكتُّ ، وأصغيتُ إليه - وأتمّ الشرطىُّ الحديث فقال : دار يقال لها : دار فلان - فذكر دارى ، واسمى - فيها بستان ، وفيه سدرة [1] ، وكان فى بستان دارى سدرة ، وتحت السدرة مدفون ثلاثون ألف دينار ، فامض ، فخذها ، فما فكّرت فى هذا الحديث ، ولا التفتّ إليه ، وأنت يا أحمق ، فارقتَ وطنك ، وجئت إلى مصر بسبب منام .

قال : فقوى بذلك قلبى ، وأطلقنى الطائف ، فبت فى بعض المساجد ، وخرجت مع السَّحَر من مصر ، فقدمت بغداد ، فقطعت السدرة ، وأثرت تحتها ، فوجدت قمقماً فيه ثلاثون ألف دينار ، فأخذته ، وأمسكت يدى ، ودبّرت أمرى ، فأنا أعيش من تلك الدنانير ، من فضل ما ابتعتُ منها من ضيعة وعقار إلى اليوم .

■ ■ ■

---

١ - السدرة : شجرة النبق .

توبة فنان

حدّثني عبيد الله بن محمّد الصرويّ ، عن أبيه ، قال :

كان يجاورنا ببغداد فتى من أولاد الكتّاب ، وورث مالاً جليلاً ، فأتلفه في القيان [1] ، وأكله إسرافاً ، حتّى لم يبق منه شيء ، واحتاج إلى نقض داره ، فلم يبق منها غير بيت [2] يكنّه .

فحدّثني بعض من كان يعاشره وانقطع عنه لما افتقر ، قال :

قصدته يوماً بعد انقطاعي عنه نحو سنة ، لأعرف خبره ، فدخلت إليه ، فوجدته نائماً في ذلك البيت ، في يوم بارد ، على حصير خَلَق ، قد توطّأ قطناً كأنّه حشو فراش ، وتغطّى بقطن كان في لحاف ، فهو بين ذلك القطن كأنّه السفرجل .

فقلت له : ويحك ، بلغت إلى هذا الحدّ .

فقال : هو ما ترى .

فقلت : فهل لك حاجة .

قال : أو تقضيها ؟

فظننت أنّه يطلب منّي شيئاً أسعفه به ، فقلت : إي والله .

فقال : أشتهي أن تحملني إلى بيت فلانة المغنّية ، حتّى أراها ، وهي الّتي كان يتعشّقها ، وأتلف ماله عليها .

وبكى ، فرحمته ، فمضيت إلى منزلي ، فأتيته من ثيابي بما لبسه ، وأدخلته الحمّام ، وحملته إلى بيتي ، فأطعمته ، وبخّرته ، وذهبنا إلى دار المغنّية .

فلمّا رأتنا ، لم تشكّ أنّ حاله قد صلحَتْ ، وأنّه قد جاءها بدراهم ، فبشّت في وجهه ، وسألته عن حاله ، فصدقها عن حاله ، حتّى انتهى إلى ذكر الثياب ، وأنّها لي .

---

١ ـ القيان : جمع قينة ، وهي الجارية المغنية .

٢ ـ بيت هنا بمعنى حجرة .

فقالت له في الحال : قم ، قم .

فقال : لِمَ ؟

فقالت : لئلّا تجيء ستّي ، فتراك ، وليس معك شيء ، فتحرد [1] عليّ ، لِمَ أدخلتكَ ، فاخرج برّا ، حتّى أصعد فأكلّمك من فوق ، فخرج ، وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة [2] في الدار ، إلى الطريق ، فأقلبت عليه مرقة سكباج [3] ، فصيرته آيةً ونكالاً .

فبكى ، وقال لي : بلغ أمري إلى هذا ؟ أشهد الله ، وأشهدك ، أنّي تائب .

فضحكت منه ، وقلت : أيّ شيء تنفعك التوبة الآن وقد افتقرت ؟

فرددته إلى بيته ، ونزعت ثيابي عنه ، وتركته بين القطن ، كما كان أوّلاً ، وحملت ثيابي فغسلتها وانقطعت عنه ، فما عرفت له خبراً .

وبعد نحو ثلاث سنين ، بينما أنا ذات يوم بباب الطاق ، إذا أنا بغلام يطرّق [4] لرجل راكب ، فرفعت رأسي ، فإذا به على برذون فاره [5] ، بمركب فضّة ، خفيف ، مليح ، وثياب حسنة ، وكان أوّلاً يركب من الدواب أفخرها ، ومن المراكب أثقلها .

فلمّا رآني ، قال لي : يا فلان ، فعلمت أنّ حاله قد صلحت ، فقبّلت فخذه .

وقلت : سيّدي أبو فلان .

قال : نعم ، قد صنع الله تعالى ، وله الحمد ، البيتَ ، البيتَ ، فتبعته إلى منزله ، فإذا بالدار الأوّلة ، قد رمّها ، وجصّصها ، من غير بياض ، وطبّقها [6] ، وبنى فيها مجلسين متقابلَيْن ، وخزائن ، ومستراح ، وجعل باقي ما كان فيها ، صحناً كبيراً ، وقد صارت حسنة ، غير أنّها ليست بذلك الأمر الأوّل .

---

١ ـ تحرد : تغضب وتعاند .

٢ ـ الروزنة : فتحة في الجدار ، وفي ريف مصر : الناروزة .

٣ ـ السكباج : اللحم إذا طبخ في الخل .

٤ ـ يطرق (بتشديد الراء) يفسح الطريق . وكان هذا شأن الكبراء والأعيان

٥ ـ البرذون : نوع من الحمير ، وفاره : مرتفع .

٦ ـ جصصها . دهنها بالجص وهو الجبس ، وطبقها . فرش أرضها بالطابوق ، وهو الحجر العريض .

فأدخلني إلى حجرة منها ، كان يخلو فيها قديماً ، قد أعادها كأحسن ما كانت . وفيها فرش حسنة ، وفي داره ثلاثة غلمان ، قد جعل كلّ خدمتين إلى واحد منهم ، وقد أقام على حرمه خادماً كان لأبيه ، وله سائس هو شاكريّه [1] ، وشيخ بوّاب كان يصحبه قديماً ، ووكيل يتسوّق له .

فجلس ، وأجلسني ، وأحضر فاكهة قليلة ، في آلة مقتصدة مليحة ، وجاءوا بعدها بطعام نظيف ، كافٍ ، غير مسرف ولا مقصّر ، فأكلنا ، ثمّ نام ، ولم تكن تلك عادته ، ومدّت ستارة ، وأحضرت مشامّ ورياحين ، في صواني وزبديّات ، والجميع متوسّط مليح ، غير مسرف ، فانتبه ، فصلّى ، وتبخّر بقطعة ندّ ، وبخّرني بقطعة عود مطرّى ، وقدّم بين يديه صينيّة فيها من مطبوخ العنب شيء حسن ، وقدّم بين يديّ صينية فيها نبيذ التمر ، جيّد .

فقلت : يا سيّدي ما هذه الترتيبات الّتي لست أعرفها .

فقال : دع ما مضى ، فإنّ الحال لا تحتمل الإسراف ، فأقبل يشرب ، وأنا أساعده ، فتغنّي من وراء الستارة ، ثلاث جواري في نهاية طيب الغناء ، كلّ واحدة منهنّ أطيب من الّتي أنفق عليها ماله .

فلمّا طابت أنفسنا ، قال لي : تذكر أيّامنا الأوّلة ؟

قلت : نعم .

قال : أنا الآن في نعمة متوسّطة ، وما قد أفدته من العقل ، والعلم بأمر الدنيا وأهلها ، يسلّيني عمّا ذهب منّي ، وهو ذا ترى فرشي ، وآلتي ، ومركوبي ، وإن لم يكن ذلك بالعظيم المفرط ، ففيه جمال ، وبلاغ ، وتنعّم ، وكفاية ، وهو مغنٍ عن الإسراف ، والتخرّق ، والتبذير ، وقد تخلّصت من تلك الشدّة ، تذكر يوم عاملتني فلانة المغنّية ، بما عاملتني ؟

قلت : نعم والحمد لله الّذي كشف ذلك عنك ، فمن أين هذه النعمة ؟

قال : مات مولى [2] لأبي ، وابن عمّ لي ، في يوم واحد بمصر ، فحصل لي من تركتهما أربعون ألف دينار ، فوصل أكثرها إليّ ، وأنا بين القطن كما رأيتني ،

---

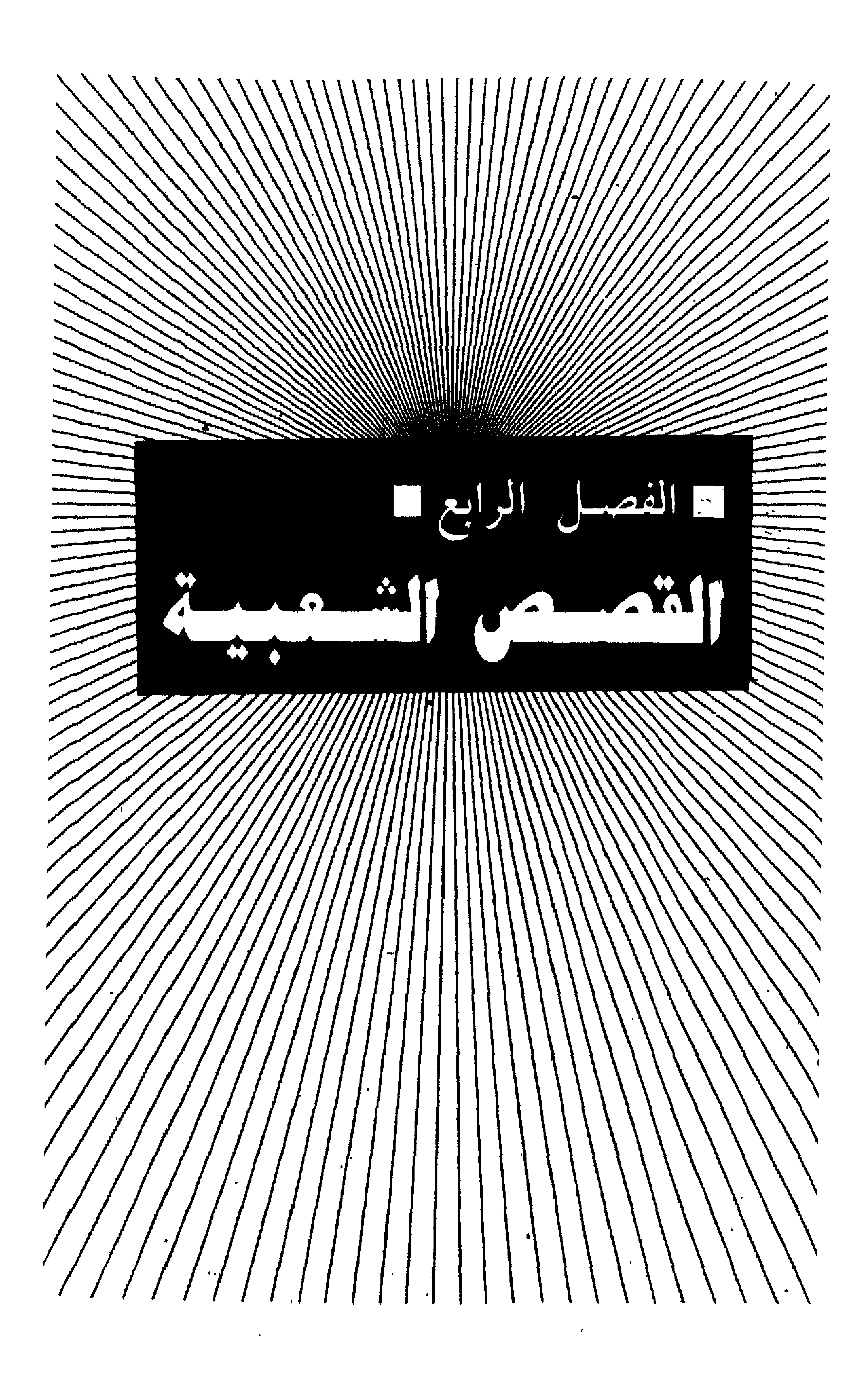
١ ـ الشاكري : الذي يقوم على رعاية حيوانات الركوب .

٢ ـ المولى : العبد .

فحمدت الله ، واعتقدت التوبة من التبذير ، وأن أدبّر ما رزقته ، فعمّرت هذه الدار بألف دينار ، واشتريت الفرش ، والآلة ، والجوارى بتسعة آلاف دينار ، وسلّمت إلى بعض التجّار الثقات ، ألفى دينار ، يتجرّ لى بها ، وأودعت بطن الأرض عشرة آلاف دينار ، للحوادث ، وابتعت بالباقى ضيعة تغلّ لى فى كلّ سنة نفقتى هذه التى شاهدتها ، فما أحتاج إلى قرض ، ولا استزادة ، ولا تقبل غلّة ، إلاّ وعندى بقية من الغلّة الأوّلة ، فأنا أتقلّب فى نعمة الله ، عزّ وجلّ ، كما ترى ، ومن تمام النعمة ، إنّى لا أعاشركَ ، ولا أحداً ممّن كان يحسّن لى السرف ، يا غلمان ، أخرجوه .

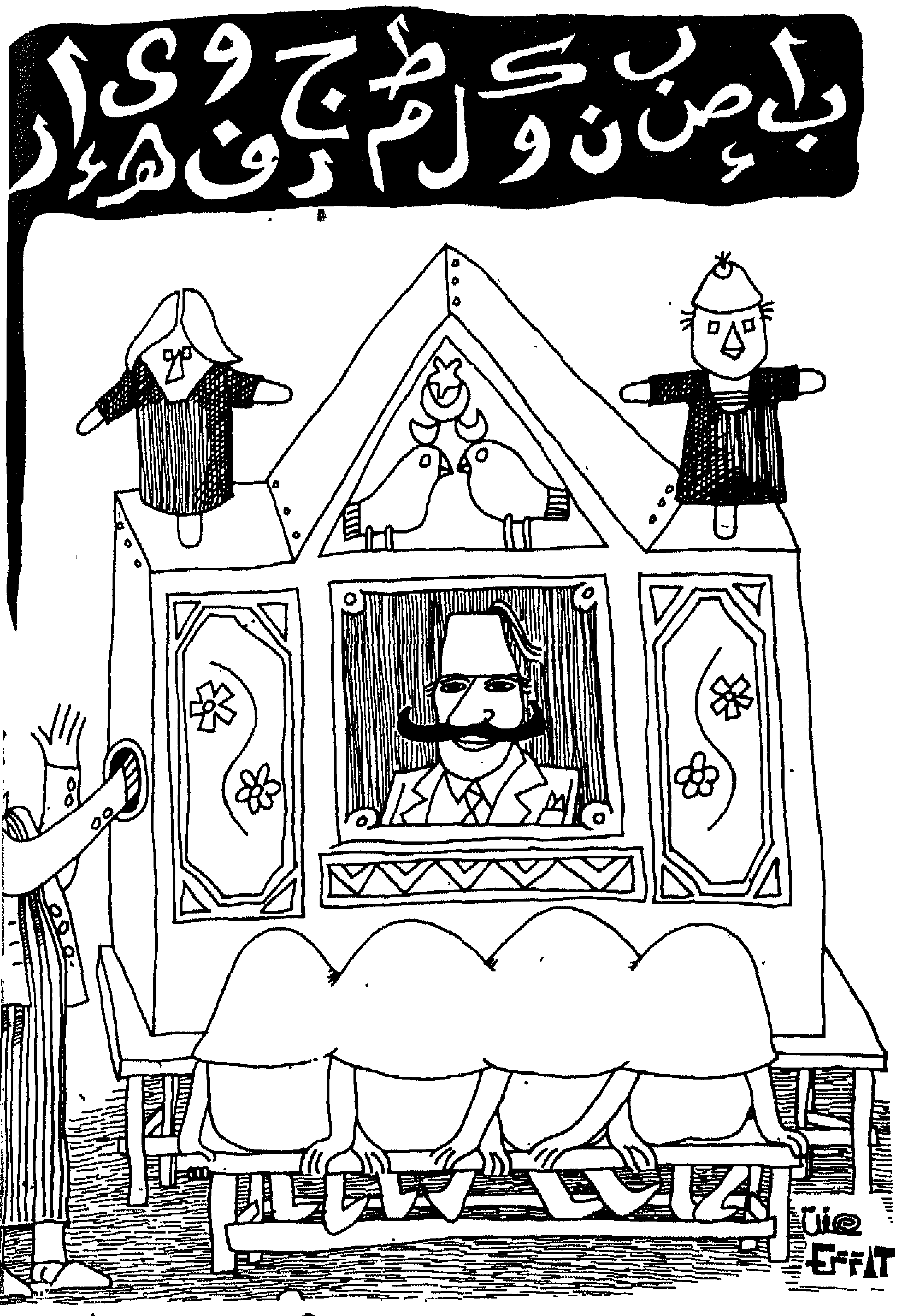
قال : فأخرجت ، فوالله ما أذن لى بعدها فى الدخول عليه .

■ ■ ■



■ الفصل الرابع ■

القصص الشعبية



● رسم : محمد عفت

راكب الأسد

حدّثني أبو جعفر أصبغ بن أحمد ، وكان يحجب أبا محمد المهلّبي رحمه الله ، قبل وزارته ، فلما ولي الوزارة كان يصرّفه في الاستحثاث على العمال [1] ، وفي الأعمال التي يتصرّف فيها العمّال الصغار ، قال :

كنت بشيراز مع أبي الحسن علي بن خلف بن طناب ، وهو يتولّى عمالتها يومئذ .

فجاء مستحثّ من الوزير ، يطالبه بحمل الأموال ، وكان أحد العمّال الأكابر ، وقد كوتب بإكرامه .

فأحضره أوّل يوم طعامه وشرابه ، فامتنع من مؤاكلته ، وذكر أنّ له عذراً .

فقال : لابدّ أن تأكل .

فأكل بأطراف أصابعه ، ولم يخرج يده من كمّه .

فلمّا كان في غد ، قال عليّ بن خلف لحاشيته : ليدعُه كلّ يوم واحد منكم ، فكانوا يدعونه ، ويدعون بعضهم بعضاً ، فكانت صورته في الأكل واحدة .

فقالوا : لعلّ به برصاً أو جذاماً .

إلى أن بلغت النوبة إليّ ، فدعوته ، ودعوت الحاشية ، وجلسنا نأكل ، وهو يأكل معنا على هذه الصورة ، فسألته إخراج يده والانبساط في الأكل ، فامتنع ، عن إخراج يده .

فقلت له : يلحقك تنغيصٌ بالأكل هكذا ، فأخرجها على أيّ شيء كان بها ، فإنا نرضى به .

قال : فكشفها ، فإذا فيها وفي ذراعه أكثر من خمسين ضربة ، بعضها مندمل ، وبعضها فيه بقيّة ، وعليها أدوية ، وهي على أقبح منظر .

فأكل معنا غير محتشم [2] ، وقدّم الشراب فشربنا ، فلما أخذ منه الشراب ، سألناه عن سبب تلك الضربات .

---

١ ـ الاستحثاث هو ما نطلق عليه الآن : متابعة الخطة أو مراقبة الموظفين .

٢ ـ دون شعور بالحرج .

فقال : هو أمر طريف أخاف أن لا أصدَّق فيه .

فقلت : لا بدّ أن تتفضّل بذلك .

فقال : كنت عام أوّل قائماً بحضرة الوزير ، فسلّم إلىّ كتاباً إلىٰ عامل دمشق ، ومنشوراً ، وأمرنى بالشخوص إليه ، وإرهاقه بالمطالبة بحمل الأموال ، ورسم لى أن أخرج على طريق السّماوة لأتعجّل ، وكتب إلى عامل هيت [1] بإنفاذى مع خفارة .

فلما حصلت بهيت ، استدعى العامل جماعة من عدّةٍ من أحياء العرب ، وسلّمنى إليهم ، وأعطاهم مالاً على ذلك ، وأشهد عليهم بتسلّمى ، واحتاط فى أمرى .

وكانت هناك قافلة تريد الخروج منذ مدّة ، وتتوقّى البريّة ، فأنسوا بى ، وسألونى أن آخذ منهم لنفسى مالاً ، وللخفراء الأعراب مالاً ، وأدخلهم فى الخفارة ، ويسيرون معى ، ففعلت ذلك ، فصرنا قافلة عظيمة .

وكان معى من غلمانى ممّن يحمل السلاح نحو عشرين غلاماً ، وفى حمّالى القافلة والتجار جماعة يحملون السلاح أيضاً .

فرحلنا عن هيت ، وسرنا فى البريّة ثلاثة أيّام بلياليها ، فبينا نحن نسير إذ لاحتْ لنا خيل .

فقلت للأعراب : ما هذه الخيل ؟ فمضى منهم قوم إليهم ثم عادوا كالمنهزمين .

فقالوا : هؤلاء قوم من بنى فلان بيننا وبينهم شرّ وقتال ، ونحن طلبتهم [2] ، ولا ثبات لنا معهم ، ولا يمكننا خفارتكم معهم ، وركضوا منصرفين ، وبقينا متحيّرين ، فلم أشكّ أنّهم كانوا من أهلهم ، وأنهم فعلوا ذلك بمواطأة علينا .

فجمعت القافلة ، وشجّعتُ أهلها وغلمانى ، وضممت بعضها إلى بعض ، وأمرتهم بحمل السلاح ، ولأمة الحرب ، فصرنا حول القافلة من خارجها متساندين إليها كالدائرة .

---

١ - السماوة : بادية الشام ، وهيت إحدى القرى فى الطريق إليها .

٢ - طلبتهم : الهدف الذى يبحثون عنه .

وقلت لمن معي : لو كان هؤلاء يأخذون أموالنا ويدعون جمالنا لننجو عليها كان هذا أسهل ، ولكنّ الجمال والدواب أوّل ما تؤخذ ، وتتلف نحن في البريّة ضيعة وعطشاً ، فاعملوا على أن نقاتل ، فإن هزمناهم سلمنا ، وإن قتلنا كان أسهل من الموت بالعطش .

فقالوا : نفعل .

وغشينا القوم ، فقاتلناهم من انتصاف النهار إلى أن حجز الليل بيننا ، ولم يقدروا علينا ، وقتلنا عدّة خيل ، وجرحنا منهم جماعة ، وما ظفروا منّا بعورة ، وباتوا بالقرب منّا حنقين علينا .

وتفرّق الناس للأكل والصلاة ، واجتهدت بهم أن يجتمعوا ، ويبيتوا تحت السلاح ، فخالفوني ، وكانوا قد كلّوا وتعبوا ، ونام أكثرهم .

فغشيتنا الخيلُ ، فلم يكن عندنا امتناع ، فوضعوا فينا السيوف ، وكنت أنا المطلوب خاصّة ، لما شاهدوه من تدبيري القوم برأيي ، وعلموا أنّي رئيس القافلة ، فقطّعوني بالسيوف ، ولحقتني هذه الجراحات كلّها ، وفي بدني أضعافها .

قال : وقد كشف لنا عن أكثر جسده ، فإذا به أمرٌ عظيم هالنا ، ولم نره في بشر قط .

قال : وكان في أجلي تأخيرٌ ، فرميتُ نفسي بين القتلى ، لا أشكّ في تلفي ، وساقوا الجمال والأمتعة والأسارى .

فلما كان بعد ساعة ، أفقتُ ، فوجدت في نفسي قوّة ، والعطش قد اشتدّ بي ، فلم أزل أتحامل ، حتى قمت أطلب في القافلة سطيحة [1] قد أفلتت ، أشرب منها ، فلم أجد شيئاً .

ورأيت القتلى والمجروحين الذين هم في آخر رمق ، وسمعت من أنينهم ما أضعف نفسي ، وأيقنت بالتلف .

وقلت : غاية ما أعيش إلى أن تطلع الشمس .

فتحاملت أطلب شجرة أو محملاً قد أفلت ، لأجعله ظلاً لي من الشمس إذا طلعت .

---

١ ـ السطيحة : وعاء الماء أو القربة .

فإذا أنا قد عثرت بشيء لا أدرى ما هو ، فى الظلمة ، فإذا أنا منبطح عليه بطولى وطوله .

فثار من تحتى ، وعانقته ، وقدّرته رجلاً من الأعراب ، فإذا هو أسدٌ .

فحين علمت ذلك طار عقلى ، وقلت : إن استرخيت افترسنى ، فعانقت رقبته بيدى ، ونمت على ظهره ، وألصقت بطنى بظهره ، وجعلت رجلى تحت مخصاه .

وكانت دمائى تجرى ، فحين داخلنى ذلك الفزع العظيم رقأ [1] الدم ، وعلق شعر الأسد بأفواه أكثر الجراحات ، فصار سداداً لها ، وعوناً على انقطاع الدم ، لأنّى حصلت كالملتصق عليه .

وورد على الأسد منّى ، أطرف ممّا ورد علىّ منه وأعظم ، وأقبل يجرى تحتى كما تجرى الفرس تحت الراكب القوىّ ، وأنا أحسُّ بروحى تخرج ، وأعضائى تتقصّف من شدّة جريه ، ولم أشكّ أنّه يقصد أجمة بالقرب فيلقينى إلى لبوته فتفترسنى .

فجعلت أضبط نفسى مع ذلك وأؤمّل الفرج ، وأدافع الموت عاجلاً ، وكلّما همّ أن يربض ركضت خصاه برجلى فيطير ، وأنا أعجب من نفسى ومطيّتى ، وأدعو الله عزّ وجلّ ، وأرجو الحياة مرّة ، ومرّة آيس من نفسى .

إلى أن ضربنى نسيم السحر ، فقويت نفسى ، وأقبل الفجر يضىء ، فتذكّرت طلوع الشمس فجزعت ، ودعوت الله تعالى ، وتضرعت إليه .

فما كان بأسرع من أن سمعت صوتاً ضعيفاً لا أدرى ما هو ، ثم قوى ، فشبّهته بصوت ناعورة ، والأسد يجرى ، وقوى الصوت ، فلم أشكّ فى أنّه ناعورة .

ثم صعد الأسد إلى تلّ ، فرأيت منه بياض ماء الفرات وهو جار ، وناعورة تدور ، والأسد يمشى على شاطىء الفرات برفق ، إلى أن وجد مشرعة [2] ، فنزل منها إلى الماء ، وأقبل يسبح ليبعد .

---

١ ـ رقا : تجمّد وتوقف .

٢ ـ المشرعة : المورِدة .

فقلت لنفسي : ما قعودي ، لئن لم أتخلّص هنا ، لا تخلّصت أبداً .

فمازلت أرفق به ، حتى تخلّصت ، وسقطت عنه ، وسبحت منحدراً ، وأقبل هو يشقّ الماء عرضاً .

فما سبحت إلاّ قليلاً ، حتى وقعت عيني على جزيرة ، فقصدتها ، وحصلت فيها ، وقد بطلت قوّتي ، وذهب عقلي ، فطرحت نفسي عليها كالتالف .

فلم أحسّ إلاّ بحرّ الشمس قد أنبهني ، فرجعت أطلب شجرة رأيتها في الجزيرة ، لأستظل بها من الشمس ، فرأيت الأسد مقعياً على شاطىء الفرات حيال الجزيرة ، فقلّ فزعي منه .

وأقمت مستظلاً بالشجرة ، أشرب من ذلك الماء ، إلى العصر ، فإذا أنا بزورق منحدر ، فصحت بهم ، فوقفوا في وسط الماء .

فقلت : يا قوم ، احملوني معكم ، وارحموني .

فقالوا : أنت دسيس اللصوص .

فأريتهم جراحاتي ، وحلفت لهم أنّه ما في الجزيرة بعلمي أحد سواي ، وأومأت لهم إلى الأسد ، وقلت لهم : قصّتي طريفة ، وإن تجاوزتموني كنتم أنتم قد قتلتموني ، فالله ، الله ، في أمري ، فوقفوا ، فأتوا ، فحملوني .

فلمّا حصلتُ في الزورق ، ذهب عقلي ، فما أفقت إلاّ في اليوم الثاني ، فإذا عليّ ثياب نظاف ، وقد غُسلت جراحاتي ، وجُعل فيها الزيت والأدوية ، وأنا بصورة الأحياء .

فسألني أهل الزورق عن حالي ، فحدّثتهم .

وبلغنا إلى هيت ، فأنفذت إلى العامل من عرفه خبري ، فجاءني من حملني إليه .

وقال : ما ظننت أنّك أفلت ، فالحمد لله على السلامة .

وقال لي : كيف هذا الذي جرى لك ؟

فحدّثته الحديث من أوّله إلى آخره ، فتعجّب عجباً شديداً ، وقال : بين الموضع الذي قطع عليكم فيه الطريق ، وبين الموضع الذي حملك أهل الزورق منه مسافة أربعين فرسخاً على غير محجّة .

فأقمت عنده أيّاماً ، ثُم أعطاني نفقةً ، وثياباً ، وزورقاً ، فجئت إلى بغداد ، فمكثت أعالج جراحاتي عشرة أشهر حتى صرت هكذا .

ثم خرجتُ وقد افتقرت ، وأنفقت جميع ما كان فى بيتى ، فلمّا قمت بين يدى الوزير ، رقّ لى ، وأطلق مالاً ، وأخرجنى إليكم .

■ ■ ■

الجميلة المتوحشة

حدّثني أبو المغيرة محمّد بن يعقوب بن يوسف ، الشاعر البصري ، قال :

حدّثني أبو موسى عيسى بن عبد الله البغدادي ، قال :

حدّثني صديق لي قال :

كنت قاصداً الرملة [1] وحدي ، وما كنت دخلتها قط .

فانتهيت إليها وقد نام الناس ، ودخل الليل ، فعدلت إلى الجبّانة ، ودخلت بعض القباب التي على القبور ، فطرحت درقة [2] كانت معي ، واتّكأت عليها ، وعانقت سيفي ، واضطجعت أريد النوم ، لأدخل البلد نهاراً .

قال فاستوحشت من الموضع ، وأرقت ، فلمّا طال أرقي ، أحسست بحركة .

فقلت : لصوص يجتازون ، ومتى تصدّيت لهم ، لم آمنهم ، ولعلّهم أن يكونوا جماعة ، فانخزلت بمكاني ، ولم أتحرّك .

وأخرجت رأسي من بعض أبواب القبّة ، على تخوّف شديد منّي ، فرأيت دابّة كالذئب تمشي ، فإذا به قصد قبّة بحيالي ، وما زال يتلفت طويلاً ، ويدور حواليها ، ثم دخلها .

فارتبت به ، وأنكرت أمره ، وتطلّعَتْ نفسي إلى علم ما هو فيه .

فدخل القبّة ، وخرج غير مطيل ، ثم جعل يتبصّر ، ثم دخل وخرج بسرعة ، ثم دخل وعيني إليه ، فضرب بيده إلى قبر في القبّة ، يعثره .

فقلت : نبّاشٌ لا شكّ فيه ، وتأمّلته يحفر بيده ، فعلمت أنّ فيها آلة حديد يحفر بها .

---

١ ـ الرملة . من مدن فلسطين .

٢ ـ الدرقة : الدرع المصنوع من الجلد .

فتركته إلى أن اطمأنّ وأطال ، وحفر شيئاً كثيراً ، ثم أخذتُ سيفي ودرقتي ، ومشيتُ على أطراف أناملي ، حتى دخلت القبّة ، فأحسّ بي ، فقام إليّ بقامة إنسان ، وأومأ إليّ ليلطمني بكفّه ، فضربت يده بالسيف ، فأبنتها [1] وطارت .

فقال : أوّه ، قتلتني لعنك الله .

وعدا من بين يديّ ، وعدوت خلفه ، وكانت ليلة مقمرة ، حتى دخل البلد ، وأنا وراءه ولست ألحقه ، إلاّ أنّه بحيث يقع بصري عليه .

إلى أن اجتاز بي طرقاً كثيرة ، وأنا في خلال ذلك أعلّم الطريق لئلا أضلّ ، حتى جاء إلى باب ، فدفعه ودخل وأغلقه ، وأنا أسمع .

فعلّمت الباب ، ورجعت أقفو الأثر والعلامات التي علّمتها في طريقي ، حتى انتهيت إلى القبّة التي كان فيها النبّاش .

وطلبت الكفّ فوجدتها ، فأخرجتها إلى القمر ، فبعد جهد ، انتزعت الكفّ المقطوعة من الآلة الحديد ، وإذا هي كفّ كالكفّ ، وقد أدخل أصابعه في الأصابع ، وإذا هي كفّ فيها نقش حنّاء ، وخاتمان من الذهب ، فعلمت أنّها امرأة .

فحين علمت أنّها امرأة ، اغتممتُ ، وتأملتُ الكفّ ، فإذا هي أحسن كفّ في الدنيا ، نعومة ، ورطوبة ، وسمناً ، وملاحة .

فمسحت الدم عنها ، ونمت في القبّة التي كنت فيها ، ودخلت البلد من الغد ، أطلب العلامات التي علّمتها ، حتى انتهيت إلى الباب .

فسألت : لمن الدار ؟

فقالوا : لقاضي البلد .

واجتمع عليها خلق كثير ، وخرج منها شيخ بهيّ ، فصلّى الغداة بالناس ، وجلس في المحراب ، فازداد عجبي من الأمر .

فقلت لبعض الحاضرين : بمن يعرف هذا القاضي ؟

فقال : بفلان .

وأطلت الجلوس والحديث في معناه ، حتى عرفت أنّ له ابنة عاتقاً [2] ،

---

١ ـ ابنتها . قطعتها .

٢ ـ الفتاة العاتق : التي بلغت سنّ الزواج .

وزوجة ، فلم أشكّ فى أنّ النبّاشة ابنته .

فتقدّمت إليه ، وقلت : بينى وبين القاضى أعزّه الله حديث لا يصلح إلاّ على خلوة .

فقام إلى داخل المسجد ، وخلا بى ، وقال : قل .

فأخرجت الكفّ وقلت : أتعرف هذه ؟ .

فتأمّلها طويلاً ، وقال : أمّا الكفّ فلا ، وأما الخاتمان ، فمن خواتيم ابنه لى عاتق ، فما الخبر ؟ .

فقصصت عليه القصّة بأسرها ، فقال : قم معى .

فأدخلنى إلى داره ، وأغلق الباب ، واستدعى طبقاً وطعاماً ، فأحضر .

واستدعى امرأته ، فقال لها الخادم : اخرجى .

فقالت : قل له كيف أخرج ومعك رجل غريب ، فخرج الخادم ، وأعلمه بما قالت .

فقال : لابدّ من خروجها تأكل معنا ، فهنا من لا أحتشمه .

فتأبّت عليه ، فحلف بالطلاق لتخرجنّ له فخرجت باكية ، وجلست معنا .

فقال لها : أخرجى ابنتك .

فقالت : يا هذا ، أو قد جننت ؟ ما الذى حلّ بك ، قد فضحتنى وأنا امرأة كبيرة ، فكيف تهتك صبيّة عاتقاً ؟ فحلف بالطلاق لتخرجنّها ، فخرجت .

فقال : كلى معنا ، فرأيت صبية كالدينار ، ما نظرت مقلتاى أحسن منها ، إلاّ أنّ لونها قد اصفرّ جداً ، وهى مريضة .

فعلمت أنّ ذلك لنزف الدم من يدها ، فأقبلت تأكل بشمالها ، ويمينها مخبوءة .

فقال لها أبوها : أخرجى يدك اليمنى .

فقالت أمّها : قد خرج بها خراج ، وهى مشدودة ، فحلف لتخرجنّها .

فقالت له امرأته : يا رجل استر على نفسك ، وابنتك ، فوالله ، وحلفت له بأيمان كثيرة ، ما اطّلعت لهذه الصبيّة على سوء قط إلاّ البارحة ، فإنّها جاءتنى بعد نصف الليل ، فأيقظتنى ، وقالت : يا أمى ، الحقينى ، وإلاّ تلفتُ .

فقلت : مالك ؟

فقالت : إنّه قد قطعت يدى ، وهوذا أنزف الدم ، والساعة أموت ، فعالجينى ، وأخرجت يدها مقطوعة ، فلطمت .

فقالت : يا أماه لا تفضحينى ونفسك بالصياح عند أبى والجيران ، وعالجينى .

فقلت : لا أدرى بم أعالجك .

فقالت : إغلى زيتاً ، وأكوى به يدى .

ففعلت ذلك ، وكويتها ، وشددتها ، وقلت لها : الآن خبّرينى ما دهاك ، فامتنعت .

فقلت : والله ، إن لم تحدّثينى ، لأكشفنّ أمرك لأبيك .

فقالت : إنّه وقع فى نفسى ، منذ سنين ، أن أنبش القبور ، فتقدّمت إلى هذه الجارية ، فاشترت لى جلد ماعز بشعره واستعملت لى كفًا من حديد .

فكنت إذا أعتم الليل ، أفتح الباب ، وآمرها أن تنام فى الدهليز ، ولا تغلق الباب ، وألبس الجلد ، والكفّ الحديد ، وأمشى على أربع ، فلا يشكّ الذى يرانى من فوق سطح أو غيره أنّنى كلب .

ثم أخرج إلى المقبرة ، وقد عرفت من النهار ، خبر من يموت من رؤساء البلد ، وأين دفن ، فأقصد قبره ، فأنبشه ، وآخذ الأكفان ، وأدخلها معى فى الجلد ، وأمشى مشيتى ، وأعود والباب غير منغلق ، فأدخل ، وأغلقه ، وأنزع تلك الآلة ، فأدفعها إلى الجارية ، مع ما قد أخذت من الأكفان ، فتخبئه فى بيت لا تعلمون به .

وقد اجتمع عندى نحو ثلثمائة كفن ، أو ما يقارب هذا المقدار ، لا أدرى ما أصنع بها ، إلاّ أنّى كنت أجد لهذا الخروج ، والفعل ، لذّة لا سبب لها أكثر من إصابتى بهذه المحنة .

فلمّا كانت الليلة ، سلّط علىّ رجل أحسّ بى ، كأنّه كان حارساً لذلك القبر ، فقمت لأضرب وجهه بالكفّ الحديد ، ليشتغل عنّى ، وأعدو ، فداخلنى بالسيف ، ليضربنى ، فتوقّيت الضربة بيمينى ، فأبان كفّى .

فقلت لها : أظهرى أن قد خرج فى كفّك خُرَّاجٌ ، وتعاللى ، فإنّ الذى بك من الصفار ، يصدّق قولك .

فإذا مضت أيّام ، قلت لأبيك : إذا لم تقطع يدك ، خبث جميع جسدك ،

وتلفتِ ، فيأذن فى قطعها ، فنظهر أنّا قد قطعناها ، ويشيع الخبر ـ حينئذ ـ بهذا ، ويستتر أمرك .

فعملنا على هذا ، بعد أن استتبّتها[1] ، فتابت ، وحَلَفَتْ بالله العظيم ، لا عادت تفعل شيئاً من ذلك .

وكنت قد خطر لى أن أبيع هذه الجارية ، إلى سفّار يغرّبها عن هذه البلد التى نحن فيها ، وأراعَى مبيت الصبيّة ، وأبيتها إلى جانبى ، ففضحتنا ونفسك .

فقال القاضى للصبيّة : ما تقولين ؟

فقالت : صدقت أمّى ، ووالله ، لا عدت أبداً ، وأنا تائبة إلى الله تعالى .

فقال لها أبوها : هذا صاحبك الذى قطع يدك ، فكادت تتلف جزعاً .

ثم قال لى : يا فتى من أين أنت ؟

قلت : من العراق .

قال : ففيم وردت ؟

قلت : أطلب الرزق .

قال : قد جاءك حلالاً طيباً ، نحن قوم مياسير[2] ، ولله علينا نعمة وستر ، فلا تنقص النعمة ، ولا تهتك الستر ، أنا أزوّجك بابنتى هذه ، وأغنيك بمالى عن الناس ، وتكون معنا فى دارنا .

فقلت : نعم .

فرفع الطعام ، ثم خرج إلى المسجد ، والناس مجتمعون ينتظرونه ، فخطب ، وزوّجنى ، وقام فرجع ، وأقعدنى فى الدار .

ووقعت الصبيّة فى نفسى ، حتى كدت أموت عشقاً لها ، فافترعتها[3] ، وأقامت معى شهوراً ، وهى نافرة منّى ، وأنا أؤانسها ، وأبكى حسرة على يدها ، وأعتذر إليها ، وهى تظهر قبول عذرى ، وأنّ الذى بها غمًّا على يدها ، وهى تزداد حنقاً علىّ .

إلى أن نمت ليلةً ، واستثقلتُ فى نومى ، فأحسست بثقل على صدرى ،

---

١ ـ طلبت منها أن تتوب .
٢ ـ مياسير : ميسورون أغنياء .
٣ ـ افترع الفتاة : أزال بكارتها .

فانتبهت جزعاً ، فإذا زوجتى باركة على صدرى ، وركبتاها على يدىّ ، مستوثقة منهما ، وفى يدها سكّين ، وقد أهوت لتذبحنى ، فاضطربتِ .

ورمت الخلاص ، فتعذّر ، وخشيت أن تبادرنى ، فسكتّ ، وقلت لها : كلّمينى ، واعملى ما شئت .

فقالت لى : قل .

فقلت : ما يدعوك إلى هذا ؟

قالت : أظننتَ أنك قد قطعتَ يدى ، وهتكتنى ، وتزوّجنى مثلك ، وتنجو سالماً ؟ والله لا كان هذا .

فقلت : أما الذبح ، فقد فاتك ، ولكنّك تتمكّنين من جراحات توقعينها بى ، ولا تأمنين أن أفلت ، فأذبحك ، وأهرب أو أكشف هذا عليك ، ثم أسلمك إلى السلطان ، فتنكشف جنايتك الأولى ، والثانية ، ويتبرّأ منك أبوك ، وأهلك ، وتقتلين .

فقالت : افعل ما شئت لابدّ من ذبحك ، وقد استوحش الآن كلّ منّا من صاحبه .

فنظرت ، فإذا الخلاص منها بعيد ، ولابدّ من أن تجرح موضعاً من بدنى ، فيكون فيه تلفى .

فقلت : ليس إلاّ العمل فى حيلة ، فقلت لها : أو غير هذا ؟

قالت : قل .

قلت : أطلّقك الساعة ، وتفرجين عنّى ، وأخرج غداً عن البلد ، فلا أراك ، ولا ترينى أبداً ، ولا يكشف لك حديثٌ فى بلدك ، ولا تفتضحى ، وتتزوّجين بمن شئت ، فقد شاع أنّ يدك قطعت بخراج خبّثها ، وتربحين الستر .

قالت : لا أفعل ، حتى تحلف لى أنّك لا تقيم فى البلد ، ولا تفضحنى أبداً ، وتعجّل لى الطلاق .

فطلّقتها ، وحلفت لها بالأيمان المغلظة أنّى أخرج ، ولا أفضحها ، فقامت عن صدرى تعدو ، خوفاً من أن أقبض عليها ، حتى رمت الموسى من يدها ، بحيث لا أدرى أين هو ، وعادت .

وأخذت تظهر أنّ الذى فعلته بى مزاحاً ، وأخذت تلاعبنى ، فقلت : إليك عنّى ، فقد حرمتِ علىّ ، ولا تحلّ لى ملامستك ، وفى غد أخرج عنك .

فقالت : الآن علمت صدقك ، والله ، لئن لم تفعل ، لا نجوتَ من يدى ، وقامت فجاءتنى بصرّة ، وقالت : هذه مائة دينار ، خذها نفقة لك ، واكتب رقعة بطلاقى ، واخرج غداً .

فأخذت الدنانير ، وخرجت من سحرة ذلك اليوم ، بعد أن كتبت إلى أبيها ، أنّى قد طلّقتها ثلاثاً ، وأنّنى خرجت حياء منه .

ولم ألتق معهم إلى الآن .

■ ■ ■

أموية على باب عباسية

قالت زينب بنت سليمان الهاشمية : كنتُ ـ من أوّل أمس ـ عند الخيزران [1] ، ومجلسى ومجلسها ـ إذا اجتمعنا ـ فى عتبة باب الرواق ، وبالقرب منّا فى صدر المكان ، برذعة [2] ، ووسادتان ، ومسانيد ، عليها سبنيّة [3] ، لأمير المؤمنين .

وهو كثير الدخول إليها والجلوس عندها ، فإذا جاء جلس فى ذلك الموضع ، وإذا انصرف ، طرحت عليه السبنية إلى وقت رجوعه ، فإنّا لجلوس ، إذ دخلت عليها إحدى جواريها ، فقالت : يا ستّى ، بالباب امرأة ما رأيت أحسن منها وجهاً ، ولا أسوأ حالاً ، عليها قميص ما يستر بعضه موضعاً من بدنها ، إلاّ انكشف منها موضع آخر غيره ، تستأذن عليك .

فالتفتت إلىّ ، وقالت : ما ترين ؟

فقلت : تسألين عن اسمها ، وحالها ، ثم تأذنين لها على علم ، فقالت الجارية : قد والله جهدت بها كلّ الجهد ، أن تفعل ، فما فعلت ، وأرادت الانصراف ، فمنعتها .

فقلت للخيزران : وما عليك أن تأذنى لها ، فأنت منها بين ثواب ومكرمة ، فأذنت لها .

فدخلت امرأة على أكثر مما وصفت الجارية ، وهى مستخفية ، حتى صارت إلى عضادة الباب ، مما يلينى ، وكنت متّكئة .

فقالت : السلام عليكم ، فرددنا عليها السلام .

ثم قالت للخيزران : أنا امرأة مروان بن محمّد .

قالت : فلمّا وقع اسمها فى أذنى ، استويت جالسة ، ثم قلت : مزنة ؟

قالت : نعم .

---

١ ـ الخيزران : هى زوجة الخليفة العباسى : المهدى ، وأم الخليفتين : الهادى والرشيد ، وكانت جليستها زينب بنت سليمان ، حين أقبلت مزنة زوجة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وقد قتله العباسيون .. لقد جاءت مزنة تحتمى بأعدائها من فعل الزمن .

٢ ـ برذعة : كنبة صغيرة للراحة .

٣ ـ سبنية : فرش لحماية الكنبة التى يجلس عليها الخليفة .

قلت : لا حيّاك الله ، ولا قرّبك ، الحمد لله الذى أزال نعمتك ، وأدال عزّك ، وصيّرك نكالاً وعبرة ، أتذكرين يا عدوّة الله ، حين أتاك عجائز أهل بيتى يسألنك أن تكلّمى صاحبك فى إنزال إبراهيم بن محمّد من خشبته [1] ، فلقيتيهنّ ذلك اللقاء ، وأخرجتيهنّ ذلك الإخراج ، الحمد لله الذى أزال نعمتك .

فضحكت ـ والله ـ المرأة ، حتى كادت تقهقه ، وبدا لها ثغر ، ما رأيت أحسن منه قط .

وقالت : أى بنت عمّ [2] ، أىّ شىء أعجبك من حسن صنع الله بى على ذلك الفعل ، حتى أردت أن تتأسّى [3] بى ، والله ، لقد فعلتُ بنساء أهل بيتك ، ما فعلتُ ، فأسلمنى الله إليك جائعة ، ذليلة ، عريانة ، فكان هذا مقدار شكرك لله تعالى على ما أولاك فىّ ، ثم قالت : السلام عليكم .

ثم ولّت خارجة تمشى خلاف المشية التى دخلت بها .

فقلت للخيزران : إنّها مخبأة [4] من الله عزّ وجلّ ، وهدية منه إلينا ، ، والله ـ يا خيزران ـ لا يتولّى إخراجها مما هى فيه أحد غيرى .

ثم نهضت على أثرها ، فلمّا أحسّت بى أسرعَتْ ، وأسرعْتُ خلفها ، حتى وافيتها عند الستر ، ولحقتنى الخيزران ، فتعلّقت بها .

وقلت : يا أخت ، المعذرة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وإليك ، فإنّى ذكرت ، بمكانك ، ما نالنا من المصيبة بصاحبنا ، فكان منّى ما وددتُ أنّى غفلت عنه ، ولم أملك نفسى .

وأردت معانقتها ، فوضعت يدها فى صدرى ، وقالت : لا تفعلى ، يا أخت ، فإنّى على حال ، أصونك من الدنوّ منها .

---

١ ـ إبراهيم بن محمد عباسى هاشمى قتله الامويون وصلبوه ، ورفضت مزنة (ايام عزها) أن تكلم زوجها الخليفة فى إنزاله عن آلة الصلب .

٢ ـ لا غرابة فى نداء خصمها بابنة العم فالامويون والعباسيون من قريش .

٣ ـ تتأسى : تقتدى وتقلدى .

٤ ـ اى أن الله تعالى أرسلها اختبارا لنا ليرى هل نحسن أو نسىء إلى من سبقت اساءته إلينا .

فرددناها ، وقلت للجوارى : أدخلن معها الحمّام .
وقلت للمواشط : اذهبن معها ، حتى تصلحن حفافها ، وما تحتاج إلى إصلاحه من وجهها .
فمضت ، ومضين معها ، ودعونا بكرّسى ، وجلسنا أنا والخيزران عليه ، فى صحن الدار ، ننتظر خروجها .
فخرجت إلينا إحدى المواشط وهى تضحك .
فقلت لها : ما يضحكك ؟
فقالت : يا ستّى ، إنّا لنرى من هذه المرأة عجباً .
فقلت : وما هو ؟
فقالت : نحن معها فى انتهار ، وزجر ، وخصومة ، ما تفعلين أنت ، ولا ستّنا ، مثله إذا خدمناكما .
فقلت للخيزران : حتى تعلمين - والله - يا أختى أنها حرّة رئيسة ، والحرّة لا تحتشم من الأحرار .
وخرجت إلينا جارية أعلمتنا أنها قد خرجت من الحمّام ، فوجّهت إليها الخيزران أصناف الخلع ، فتخيّرت منها ما لبسته ، وبعثنا إليها بطيب كثير ، فتطيّبت ، ثم خرجت إلينا .
فقمنا جميعاً ، فعانقناها ، فقالت : الآن ، نعم .
ثم جئنا إلى الموضع الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى ، فأقعدناها فيه .
ثم قالت الخيزران : إنّ غداءنا قد تأخر ، فهل لك فى الطعام ؟
فقالت : والله ما فيكنّ من هى أحوج إليه منّى .
فدعونا بالطعام ، فجعلت تأكل ، وتضع بين أيدينا ، حتى كأنّها فى منزلها .
فلمّا فرغنا من الأكل ، قالت لها الخيزران : من لك ممن تعنين به ؟
قالت : ما لى وراء هذا الحائط أحد من خلق الله تعالى .
فقالت لها الخيزران : فهل لك فى المقام عندنا ، على أن نخلى لك مقصورة من المقاصير ، ويحوّل إليها جميع ما تحتاجين إليه ، ونستمتع بعضنا ببعض ؟
فقالت : ما درت إلاّ على أقلّ من هذا الحال ، وإذ قد تفضّل الله - عزّ وجلّ -

عليّ بكما ، وبهذه النعمة ، فلا أقلّ من الشكر لأمير المؤمنين المهدى ، لكلّ نعمة ، ولكما ، فافعلى ما بدالك ، وماأحببت .

فقامت الخيزران ، وقمت معها ، وأقمناها معنا ، ودخلنا نطوف بالمقاصير ، فاختارت ـ والله ـ أوسعها ، وأحسنها .

فملأتها الخيزران ، بالجوارى ، والوصائف ، والخدم ، والفرش ، والآلات ، ثم قالت : ننصرف عنك ، وعليك بمنزلك ، حتى تصلحيه ، فخلّفناها فى المقصورة ، وانصرفنا إلى موضعنا .

فقالت الخيزران : إنّ هذه امرأة رئيسة ، وقد عضّها الفقر ، وليس يملأ عينها إلّا المال ، ثم بعثت إليها بخمسة آلاف دينار ، ومائة ألف درهم .

وأرسلت إليها : تكون هذه فى خزانتك ، ووظيفتك ، ووظيفة حشمك ، قائمة فى كلّ يوم ، مع وظيفتنا .

ثم لم نلبث أن دخل علينا المهدى ، فقلت له : يا سيّدى ، لك ـ والله ـ عندى حديث طريف .

فقال : ما هو ؟ فحدّثته بالخبر .

فلمّا قلت له ما كان منّى ، من الوثوب عليها ، وإسماعها ، اقشعرّ ، واصفرّ .

ثم قال : يا زينب ، هذا مقدار شكرك لربّك عزّ وجلّ ، وقد أمكنك من عدوّك ، وأظفرك به ، على هذا الحال الذى تصفين ؟ والله ، لولا مكانك منّى ، لحلفت أن لا أكلّمك أبداً ، أين المرأة ؟

قالت : فوفّيته خبرها ، فالتفت إلى الخيزران ، يصوّب فعلها ، وجزاها خيراً .

ثم قال لخادم بين يديه : احمل إليها عشرة آلاف دينار ، ومائتى ألف درهم ، وبلّغها سلامى ، واعلمها أنّه لولا خوفى من احتشامها لسرت إليها مسلّماً عليها ، ومخبراً لها بسرورى بها ، فقل لها : أنا أخوك ، وجميع ما ينفذ فيه أمرى ، فأمرك فيه نافذ مقبول .

قالت زينب : فإذا هى قد وردت إلينا مع الخادم ، وعلى رأسها وداج ملحم [1] ، حتى جلست .

فلقيها المهدى أحسن لقاء ، فأقعدها عنده ساعة ، تحادثه ، ثم انصرفت إلى مقصورتها .

---

١ ـ الدواج : كلمة فارسية معناها اللحاف ، وفى هذا السياق تعنى ما يشبه الحرام او العباءة .

الرؤيا

حدّثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب ابن إسحاق بن البهلول الأنباري التنوخي ، قال :

خرج أخي أبو محمّد الحسن بن يوسف ، يقصد أخانا أبا يعقوب إسحاق ابن يوسف.وهو حينئذ بمصر ، ومعه زوجة كانت لأبي يعقوب إسحاق ببغداد ، وبنيّة له منها ، ومضى .

فلما عاد حدّثني أنه سلك في قافلة كبيرة ، من هيت على طريق السماوة[1] ، يريد دمشق ، قال : فلمّا حصلنا في أعماق السماوة ، أخفرتنا[2] خفراؤنا ، وجاء قوم من الأعراب ، فظاهروهم علينا ، وأظهروا أنّهم من غيرهم ، وقطعوا علينا ، فاستاقوا ركائبنا ، فبقيت أنا والناس مطرّحين على الماء الذي كنّا نزلنا عليه بلا جمل ، ولا زاد ، ولا دليل ، فأيسنا من الحياة .

فقلت للناس : إنّ الموت لابدّ منه على كلّ حال ، أقمنا في أماكننا أم سرنا ، فلأن نسير في طلب الخلاص فلعلّ الله أن يرحمنا ويخلّصنا ، أولى من أن نموت هاهنا ، وإن متنا في سيرنا كان أعذر .

فساعدوني ، وسرنا يومنا وليلتنا ، وأنا أحمل الصبيّة ابنة أخي ، لأن أمها عجزت عن حملها ، وكلما طال علينا الطريق ، ولم نر إنساناً ولا محجّة[3] ، أحسسنا بالهلاك ، ومات منّا قوم ، وأنا خلال ذلك ، قد بدأت بقراءة ختمة ، وأنا متشاغل بها ، وبالدّعاء .

إلى أن وقعنا في اليوم الثاني ، على حلّة[4] أعراب ، فأنكرونا ، فلم أعمل عملاً ، حتّى ولجت بيت امرأة منهم ، فأمسكت ذيلها ، وكنت سمعت أن الانسان إذا عمل ذلك أمن شرّهم ، ووجب حقّه عليهم ، ثمّ تفرّقنا في البيوت .

---

١ ـ منْ الطريف ان يكون حادث قطع الطريق في القصة السابقة في هذا الموقع نفسه ببادية الشام او السماوة ، وهذا يؤكد اضطراب الأمن في المنطقة ، وكثرة لصوص الأعراب .

٢ ـ اخفرتنا : غدرت بنا ، وهذا ماحدث أيضا في القصة السابقة .

٣ ـ المحجة : الطريق .

٤ ـ الحلة : القرية أو مايشبهها

واختلفت أحوال النّاس ، فأمّا أنا ، فإنّ صاحب البيت الذى نزلت عليه ، لما رأى هيئتى ودرسي للقرآن ، أكرمنى ، ولم أزل أحادثه وأرفق به .

فقال لى : ما تشاء ؟

فقلت : تركبنى وهذه المرأة ، وهذه الصبيّة ، راحلة ، وتسير معنا الى دمشق على راحلة أخرى ، بزادٍ وماءٍ ، حتّى أعطيك ثمن راحلتك وأهبها لك ، وأقضى حقّك بعد هذا .

قال : فتذمّم[1] واستحيا ، وقدّرت أنّى إذا دخلت دمشق ، وجدت بها من أصدقاء أخى ، من آخذ منه ما أريد .

فكسانى الأعرابى ، وكسا المرأة والصبيّة ، ووطّأ لى راحلة ، وحمل معنا من الماء والزّاد كفايتنا ، وركب هو راحلة أخرى ، وكان أكثر من وصل معنا الى ذلك الموضع ،قد تأتّى لى ، فصرنا رفقة صالحة العدد .

فلمّا كان بعد أيّام ، شارفنا دمشق مع طلوع الشمس ، فإذا بأهلها قد خرجوا يستقبلوننا ، وكلّ من له صديق أو معرفة ، يسأل عنه ، وقد بلغهم خبر القطع ، فما شعرت إلا بإنسان يسأل عنّى ، بكنيتى ونسبى .

فقلت : هأنذا .

فعدل إلىّ ، وقال : أنت أبو محمّد الأزرق الأنبارى ؟

فقلت : نعم .

فقال : إلىّ ، وأخذ بخطام راحلتى ، وتبعنى الأعرابى براحلته ، حتى دخلنا مع الرّجل دمشق .

فجاء بنا الرّجل ، إلى دار حسنة سريّة ، تدلّ على نعمة حسنة ، فأنزلنا ، ولم أشكّ أنّه صديق لأخى .

فنزلت ، وأنزلت الأعرابى معى ، وأخذت جمالنا ، وأدخلنا الحمّام وألبست خلعة نظيفة ، وفعل بالمرأة والصبيّة مثل ذلك ، وأقمت عنده يومين فى خفض عيش ، لا أسأله عن شيء ، ولا يسألنى .

---

١ ـ تذمم : اظهر التعفف .

فلمّا كان في اليوم الثالث ، قال : ما صورة هذا الأعرابي معك[٦] ؟ فأخبرته بما أخذنا منه .

فقال لي : خذ ما تريد من المال .

فقلت : أريد كذا وكذا دينارا ، فأعطاني ذلك ، فدفعته إلى الأعرابي ، وسلّمت إليه جمليْه .

وسألت الرجل أن يزوّده زاداً كثيراً لا يكون مثله في البادية ، فأخرج له شيئاً كثيراً ، وخرج الأعرابيّ شاكراً .

فقال لي الرّجل : إلى أين تريد من البلاد ، وكم يكفيك من النفقة ؟

فلما قال لي ذلك ، ارتبت به ، وقلت : لو كان هذا من أصدقاء أخي الّذين كاتبهم بتفقّدي ، لكان يعرف مقصدي .

فقلت له : كم كاتبك أخي أن تدفع إليّ ؟

قال : ومن أخوك ؟

قلت : أبو يعقوب الأزرق الأنباري ، الكاتب بمصر .

فقال : والله ، ما سمعت بهذا الاسم قط ، ولا أعرفه .

فورد عليّ أعجب مورد ، وقلت له : يا هذا ، إنّي ظننتك صديقاً لأخي ، وأنّ ما عاملتني به من الجميل من أجله ، فانبسطتُ إليك بالطّلب ، ولو لم أعتقد هذا لانقبضت فما السبب فيما عاملتني به ؟

فقال : أمر هو أوكد من أمر أخيك ، يجب أن يكون انبساطك إليه أتمّ .

فقلت : ما هو ؟

قال : إنّ خبر الوقعة* بالقافلة التي كنت فيها ، بلغنا في يوم كذا وكذا ، فما بقي كبير أحد بدمشق ، إلاّ وزدت عليه مصيبة عظيمة ، إمّا بذهاب مال ، أو بغمّ على صديق ، غيري ، فإنّي لم يكن لي شيء من ذلك يتعلّق قلبي به ، واتّعد النّاس للخروج ، لتلقّي المنقطعين ، وإصلاح أحوالهم ، ولم أعزم أنا .

فلمّا كان في اللّيل ، رأيت النّبي صلّى الله عليه وسلّم في النّوم ، وهو يقول لي : أدرك أبا محمّد الأزرق الأنباري ، وأغثه ، وأصلح شأنه بما يبلغه مقصده ، فلمّا أصبحتُ ، خرجتُ مع النّاس ، فسألت عنك ، فكان ما رأيت ، والآن اذكر ما تريده .

---

٦ - يعني ما علاقة هذا الاعرابي بك ؟

فبكيت بكاء شديداً ، لم أقدر معه على خطابه مدّة ، ثمّ نظرت إلى ما يبلغني مصر ، فطلبته منه ، فأخذته ، وأصلحت أمري ، وسألت الرجّل عن اسمه ، فقال : أنا فلان بن فلان الصابوني .

قال : فلمّا بلغت إلى مصر ، حدّثت أخي بالحديث ، فعجب منه ، وبكى .

قال أبو الحسن : وضرب الدّهر ضربه ، وورد أبو يعقوب أخي إلى بغداد بعد سنين ، فتذاكرنا هذا الحديث .

فقال أخي : لما عرّفني أخي أبو محمّد ، مّا عامله به ابن الصابوني الدمشقي هذا ، جعلته صديقاً لي ، فكنت أكاتبه .

فلمّا وردت إلى دمشق ، وجدت حاله قد اختلّت ، لمحن لحقته ، فوهبت له ضيعتي بدمشق ، وكانت جليلة الغلّة والقيمة ، فسلّمتها إليه ، مكافأة لما عامل به أبا محمّد أخي .

ضربة حظ

. خرج رجل من الكتّاب فى عسكر المعتصم إلى مصر ، يريد التصرفّ[1] ، فلمْ يحظ بشىء ممّا أمّل ، ودخل المعتصم بالله مصر .

قال : فحدثنى بعض المتصرّفين عنه ، قال : نزلت فى دار بالقرب منه ، فحدّثنى الرجل بما كنت وقفت على بعضه .

قال : أصبحتُ ذات يوم ، وقد نفدت نفقتى ، وتقطّعت ثيابى ، وأنا من الهمّ ، والغمّ ، على ما لا يوصف عظماً .

فقال لى غلامى : يامولاى ، أىّ شىء نعمل اليوم ؟ .

فقلت له : خذ لجام الدابّة ، فبعه ، فإنّه محلّى ، وابتع مكانه لجاماً حديد ، واشتر لنا خبزاً سميذاً ، وجدياً سميناً ، فقد قرمت إلى أكلهما ، وعجّل ، ولا تدع أن تبتاع فيما تبتاعه كوز نبيذ شيروىّ[2] .

فمضى الغلام ، وجلست أفكّر فى أمرى ، ومن ألاقى ، وكيف أعمل ، وإذا بباب الدار قد دقّ دقاً عنيفاً ، حتّى يكاد أن يكسر ، وإذا رهج[3] شديد .

فقلت لغلام كان واقفاً بيْن يدى : بادر ، فانظر ما هذا .

فإلى أن يفتح الباب ، كُسِرَ ، وامتلأت الدار بالغلمان الأتراك وغيرهم ، وإذا بأشناس ، وهو حاجب المعتصم ، ومحمّد بن عبد الملك الزيّات ، وهوالوزير ، قد دخلا .

فطرحتُ لهم زلّية[4] ، فجلسا عليها ، وإذا معهما حفّارون .

قال : فلمّا رأيت ذلك ، بادرت فقبّلت أيديهما ، فسألانى عن خبرى ،

---

١ ـ يريد التصرّف : يبحث عن وظيفة .

٢ ـ السميذ : السميط ، قرم إلى اللحم : إشتاق إلى أكله وشيروى نسبة إلى شيراز او شخصى يصنعه .

٣ ـ رهج : غبار .

٤ ـ زلية : بساط ، وهى فارسية ، وتستخدم فى الخليج والعراق الآن ولكن يقال : زولية .

فخبرتهما إيّاه ، وأنني قد خرجت في جملة أهل العسكر ، طلباً للتصرّف ، وذكرت حالي وما قد آلت إليه ، فوعداني جميلاً ، والحفّارون يحفرون في وسط الدار ، حتّى ترجّل النهار[1] ، وأنا واقف بين أيديهما ، وربّما حدّثتهما .

فالتفت أشناس إلى محمّد بن عبد الملك فقال : أنا والله جائع .

فقال له محمّد : وأنا ـ والله ـ كذلك .

فقلت عند ذلك : يا سيّدي ، عند خادمكما شيء قد اتّخذ له ، فإن أذنتما في إحضاره أحضره .

فقالا : هات .

فقدّمت الجدي ، وما كان ابتيع لنا ، فأكلا ، واستوفيا ، وغسلا أيديهما .

ثم قال لي أشناس : عندك شيء من ذلك الفن[2] ؟

قلت : نعم ، فسقيتهما ثلاثة أقداح .

وجعل أحدهما يقول للآخر : ظريف ، وما ينبغي لنا أن نضيعه البائس .

فبينما الحال على ذلك ، إذ ارتفع تكبير الحفّارين ، وإذا هم قد كشفوا عن عشرين مرجلاً[3] دنانير ، فوجّهوا بالبشارة إلى المعتصم ، وأخرجت المراجل .

فلما نهضا ، قال أحدهما للآخر : فهذا الشقيّ الذي أكلنا طعامه ، وشربنا شرابه ، ندعه هكذا ؟

فقال له الآخر : فنعمل ماذا ؟

قال : نحفن له من كلّ مرجل حفنة ، لا تؤثّر فيه ، فنكون قد أغنيناه . ونصدق أمير المؤمنين عن الحديث .

ثمّ قالا : افتح حجرك . وجعل كلّ واحد ، يحفن له حفنة ، من كلّ مرجل ، وأخذا المال ، وانصرفا .

فنظرتُ ، فإذا قد حصل لي عشرون ألف دينار ، فانصرفت بها إلى العراق ، وابتعت بها ضياعاً ولزمت منزلي ، وتركت التصرّف .

■ ■ ■

---

١ ـ ترجل النهار : بلغ غايته ، أي وقت الظهيرة .
٢ ـ السؤال عن « ذلك الفن » كناية عن النبيذ .
٣ ـ المرجل : الإناء او القدر الضخمة .

عـــودة الغـــائب

قال مؤلّف هذا الكتاب : وقد بلغني حديث لعمرو بن مسعدة في زلّاله[1] ، أن عمرو بن مسعدة ، كان مصعداً من واسط إلى بغداد ، في حرّ شديد ، وهو جالس في زلّال ، فناداه رجلٌ : ياصاحب الزلّال بنعمةِ الله عليك إلا نظرت إليّ ،

قال : فكشف سجف الزلّال ، فإذا بشيخ ضعيف حاسر الرأس .

فقال له : قد ترى ما أنا عليه ، ولستُ أجد من يحملني ، فابتغ الأجر فيّ ، وتقدّم إلى ملّاحيك يطرحوني بين مجاديفهم ، إلى أن أصل بلداً يطرحوني فيه .

قال عمرو بن مسعدة : فرحمته ، وقلتِ خذوه ، فأخذوه ، فغشي عليه ، وكاد يموت لما لحقه من المشي في الشمس .

فلمّا أفاق ، قلت له : يا شيخ ، ما حالك ، وما قصّتك ؟

فقال : قصّة طويلة .

فسكّنته وطرحت عليه قميصاً ومنديلاً ، وأمرت له بدراهم وشمشك[2] ، فشكرني .

فقلت : لابدّ أن تحدّثني بحديثك .

فقال : أنا رجل كانت لله عزّ وجلّ عليّ نعمة جليلة ، وكنت صيرفيّاً ، فابتعت جارية بخمسمائة دينار ، فعشقتها عشقاً عظيماً ، وكنت لا أقدر أن أفارقها ساعة واحدة ، فإذا خرجت إلى الدكّان ، أخذني كالجنون والهيمان ، حتى أعود فأجلس معها يومي كله .

فدام ذلك حتى تعطّل دكّاني ، وتعطّل كسبي ، وأقبلت أنفق من رأس المال ، حتى لم يبق منه قليل ولا كثير ، وأنا مع ذلك لا أطيق أن أفارقها .

---

١ ـ الزلال : نوع من سفن السفر الخاصة .

٢ ـ الشمشك : هوالشبشب بالفارسية .

فحبلت الجارية ، وأقبلت أنقض داري ، وأبيع نقضها ، حتى فرغت من ذلك ، فلم تبق لي حيلة .

فضربها الطَّلْقُ ، فقالت : يا هذا ، هوذا أموت ، فاحتل فيما تبتاع به عسلاً ، ودقيقاً ، وشيرجا[1] ، ولحما ، وإلاّ متُّ .

فبكيت ، وحزنت ، وخرجت على وجهي ، وجئت لأغرق نفسي في دجلة ، فذكرت حلاوة النفس ، وخوف العقاب في الآخرة ، فامتنعت .

ثم خرجت هائماً على وجهي إلى النهروان ، ومازلت أمشي من قرية إلى قرية ، حتى بلغت خراسان ، فصادفت بها من عرفني ، وتصرّفت[2] في ضياعه ، ورزقني الله عزّ وجلّ مالاً عظيماً ، فأثريت ، واتّسعت حالي ، ومكثت سنين ، لا أعرف خبر منزلي ، فلم أشكّ أنّ الجارية قد ماتت .

وتراخت السنون حتى حصل لي ما قيمته عشرون ألف دينار .

فقلت : قد صارت لي نعمة ، فلو رجعت إلى وطني .

فابتعت بالمال كلّه ، متاعاً من خراسان ، وأقبلت أريد العراق ، من طريق فارس والأهواز .

فلما حصلت بينهما ، خرج على القافلة لصوص ، فأخذوا جميع ما فيها ، ونجوت بثيابي ، وعدتُ فقيراً .

ودخلت الأهواز ، فبقيت بها متحيّراً ، حتى كشفتُ خبري لبعض أهلها ممن أعرفه ، فأعطاني ما تحمّلت به إلى واسط .

ونفدَتْ نفقتي ، فمشيت إلى هذا الموضع ، وقد كدت أتلف ، فاستغثت بك ، ولي منذ فارقت بغداد ، ثمان وعشرون سنة .

فعجبت من ذلك ، وقلت له : اذهب ، فاعرف خبر أهلك ، وصر إليّ ، فإنّي أتقدّم بتصريفك فيما يصلح لمثلك ، فشكر ، ودعا ، ودخلنا بغداد .

ومضت على ذلك مدّة طويلة ، أنسيته فيها ، فبينا أنا يوماً ، قد ركبت ، أريد دار المأمون ، وإذا بالشيخ على بابي ، راكبا بغلا فارهاً ، بمركب محلّى ثقيل ، وغلام أسود بين يديه ، وثياب حسنة .

---

١ ـ الشيرج : زيت السمسم او السيرج .

٢ ـ تصرفت : عملت او توظفت .

فلما رأيته رحّبت به ، وقلت : ما الخبر ؟

فقال : طويل ، وها أنا آتي إليك في غدٍ ، وأحدّثك بالخبر .

فلما كان من الغد ، جاءني ، فقلت له : عرّفني خبرك ، فقد سررت بسلامتك ، وبظاهر حالك .

فقال : إنّي صعدت من زلّالك ، فقصدت داري ، فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلّفته ، غير أنّ باب الدار كان مجلوّاً ، نظيفاً ، وعليه دكاكين ، وبوّاب ، وبغال مع شاكريّة[1] .

فقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، ماتت جاريتي ، وملك الدار بعض الجيران ، فباعها من رجل من أصحاب السلطان .

ثم تقدّمت إلى بقّال كنت أعرفه في المحلّة ، فوجدت في دكّانه غلاماً حدثاً .

فقلت له : من تكون من فلان البقّال ؟

فقال : أنا ابنه .

فقلت : ومتى مات ؟

قال : منذ عشرين سنة .

قلت : لمن هذه الدار ؟

قال : لابن داية أمير المؤمنين ، وهو الآن صاحب بيت ماله .

قلت : بمن يعرف ؟

قال : بابن فلان الصيرفيّ ، فأسماني .

قلت : فهذه الدار من باعها إليه .

قال : هذه دار أبيه .

قلت : وأبوه يعيش ؟

قال : لا .

قلت : أتعرف من حديثهم شيئا ؟

قال : نعم ، حدثني أبي ، أنّ والد هذا الرجل كان صيرفيّاً جليلاً ، فافتقر ، وأنّ أمّ هذا الرجل ضربها الطلق ، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً ، ففقد ، وهلك .

---

١ ـ الشاكرية : السيّاس (جمع سائس)

وقال أبى : جاءنى رسول أمّ هذا ، يطلب لها شيئاً ، وهى تستغيث بى ، فقمت لها بحوائج الولادة ، ودفعت لها عشرة دراهم ، فما أنفقتْها ، حتى قيل : قد ولد لأمير المؤمنين الرشيد ، مولودٌ ذكر ، وقد عرض عليه جميع الدايات ، فلم يقبل ثديهنّ ، وقد طلب له الحرائر ، فجاءوه بغير واحدة ، فما أخذ ثدى واحدة منهنّ ، وهم فى طلب مرضع .

فأرشدت الذى طلب الداية إلى أمّ هذا ، فحملت إلى دار الرشيد ، فحين وضع فمّ الصبىّ على ثديها ، قَبله ، فأرضعته ، وكان الصبىّ المأمون ، وصارت عندهم فى حال جليلة ، ووصل إليها منهم خير كثير .

ثم خرج المأمون إلى خراسان ، وخرجت هذه المرأة وابنها هذا معها ، ولم نعرف أخبارهم إلاّ منذ قريب ، لما عاد المأمون ، وعادت حاشيته ، رأينا هذا قد صار رجلاً ، ولم أكن رأيته قَبْلُ قط ، وقد كان أبى مات .

فقالوا : هذا ابن فُلان الصيرفى ، وابن داية الخليفة المأمون ، فبنى هذه الدار وسوّاها .

فقلت : فعندك علم من أمّهِ أهى حيّة أم ميتة ؟

قال : هى حيّة ، تمضى إلى دار الخليفة أيّاماً ، وتكون عند ابنها أيّاماً هنا .

فحمدت الله تعالى على هذه الحال ، وجئت ، حتى دخلت الدار مع الناس ، فرأيت الصحن فى نهاية العمارة والحسن ، وفيه مجلس كبير مفروش بفرش فاخرة ، وفى صدره رجل شاب بين يديه كتّاب وجهابذة[1] ، وحساب يستوفيه عليهم ، وفى صفاف الدار وبعض مجالسها ، جهابذة بين أيديهم الأموال والتخوت والشواهين[2] ، يقبضون ويُقْبِضُون .

وبصرت بالفتى ، فرأيت شبهى فيه ، فعلمت أنه ابنى ، فجلستُ فى غمار الناس ، إلى أن لم يبق فى المجلس غيرى ، فأقبل علىّ .

فقال : يا شيخ ، هل من حاجة تقولها ؟

فقلت : نعم ، ولكنّه أمر لا يجوز أن يسمعه غيرك .

---

١ ـ الجهابذة (جمع جهبذ) وهم الصيارفة ومحصّلو الاموال .

٢ ـ التخت : صندوق يحفظ به ميزان الذهب ، والشاهين : الميزان .

فأومأ إلى غلمان كانوا قياماً حوله ، فانصرفوا ، وقال : قل ، أعزّك الله .

قلت : أنا أبوك .

فلمّا سمع ذلك تغيّر وجهه ، ثم وثب مسرعاً ، وتركنى مكانى .

فلم أشعر إلّا بخادم جاءنى ، فقال : قم يا سيّدى ، فقمت أسير معه ، حتى بلغت ستارة منصوبة ، فى دار لطيفة ، وكرسىّ بين يديها ، والفتى جالس على كرسىّ آخر .

فقال : اجلس أيّها الشيخ .

فجلست على الكرسى ، ودخل الخادم ، فإذا بحركة خلف الستارة .

فقلت : أظنّك تريد أن تختبر صدق ما قلت لك من جهة فلانة ، وذكرت اسم جاريتى ، أمّه .

قال : فإذا بالستارة قد كشفت ، والجارية قد خرجت إلىّ ، فوقعت علىّ تقبّلنى وتبكى ، وتقول : مولاى والله .

قال : فرأيت الفتى ، قد تشوّش ، وبهت وتحيّر .

فقلت للجارية : ويحك ما خبرك ؟

فقالت : دع خبرى ، ففى مشاهدتك ، ممّا تفضل الله عزّ وجلّ بذلك ، كفاية ، إلى أن أخبرك ، فقل ما كان من خبرك أنت ؟

فقصصت عليها خبرى ، منذ يوم خروجى من عندها ، إلى يومى ذاك ، وقصّت هى ، علىّ قصتها ، مثل ما قال ابن البقّال ، وأعجب ، وأشرح ، وكلّ ذلك بمرأى من الفتى ومسمع ، فلما استوفى الحديث ، خرج وتركنى فى مكانى .

قال : وإذا أنا بخادم ، قال : يا مولاى ، يسألك ولدك أن تخرج إليه .

قال : فخرجت إليه ، فلما رآنى من بعيد ، قام قائماً على رجليه ، وقال : معذرة إلى الله ، وإليك يا أبة ، من تقصيرى فى حقّك ، فإنّه فجأنى من أمرك ، ما لم أظنّ أنّه يكون ، والآن ، فهذه النعمة لك ، وأنا ولدك ، وأمير المؤمنين مجتهد بى منذ دهر ، أن أدع هذه الجهبذة ، وأتوفّر على خدمته فى الدار ، فلا أفعل ، طلباً للتمسّك بصنعتى ، والآن ، فأنا أسأله أن يردّ إليك عملى ، وأخدمه أنا فى غيرها ، فقم عاجلاً ، وأصلح أمرك .

فأخذت إلى الحمّام ونظّفت ، وجاءونى بخلعة ، فألبستها ، وخرجت إلى حجرة والدته ، فجلست فيها .

ثم أدخلني على أمير المؤمنين ، وحدّثته بحديثي ، وخلع عليّ ، وردّ إليّ العمل الذي كان إلى ولدي ، وأجرى عليّ من الرزق ، في كلّ شهر كذا ، وقلّد ابني أعمالاً هي من أجلّ عمله ، وأضعف له أرزاقه ، وأمره بلزوم حضرته في أشياء استعمله فيها من خاصّ أمره .

فجئت لأشكرك على ما عاملتني به منَ الجميل ، وأعرّفك بتجدّد النعمة .

قال عمرو بن مسعدة : فلمّا أسمى الفتى علمت أنّه ابن داية المأمون ، كما قال .

■ ■ ■

فراسة أو تعارف أرواح

عن رجل من أهل الكوفة ، قـال :

كنّا مع مسلمة بن عبد الملك [1] ، ببلاد الرّوم ، فسبا سبايا كثيرة ، وأقام ببعض المنازل ، فعرض السبى على السيف ، فقتل خلقاً ، حتّى عرض عليه شيخ كبير ضعيف ، فأمر بقتله .

فقال له : ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلى ؟ إن تركتنى حيًّا ، جئتك بأسيرين من المسلمين شابّين .

قال له : ومن لى بذلك [2] ؟

قال : إنّى إذا وعدتُ وفيتُ .

قال : لست أثق بك .

فقال له : دعنى حتّى أطوف فى عسكرك ، لعلّى أعرف من يتكفّل بى إلى أن أمضى وأعود أجىء بالأسيرين .

فوكّل به من يطوف به ، وأمره بالاحتفاظ به ، فمازال الشّيخ يطوف ، ويتصفّح الوجوه ، حتّى مرّ بفتى من بنى كلاب ، قائماً يحسّ فرسه [3] .

فقال له : يا فتى ، اضمنّى للأمير ، وقصّ عليه قصّته .

فقال : أفعل ، وجاء الفتى إلى مسلمة ، فضمنه ، فأطلقه مسلمة .

فلمّا مضى ، قال للفتى : أتعرفه ؟

قال : لا ، والله .

قال : فلمَ ضمنته ؟

قال : رأيته يتصفّح الوجوه ، فاختارنى ، من بينهم ، فكرهت أن أخلف ظنّه فىّ .

---

١ ـ احد القادة الابطال من البيت الاموى .

٢ ـ يعنى : من يضمن صدقك ؟

٣ ـ يحسّه : ينظفه .

فلمّا كان من الغد ، عاد الشيخ ، ومعه أسيران شابّان من المسلمين ، فسلّمهما إلى مسلمة ، وقال : إن رأى الأمير أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معى إلى حصنى لأكافئه على فعله .

فقال مسلمة للفتى الكلابى : إن شئت فامضِ معه .

فلمّا صار إلى حصنه ، قال له : يا فتى ، تعلم ـ والله ـ أنّك ابنى ؟

قال له : وكيف أكون ابنك ، وأنا رجل من العرب مسلم ، وأنت رجل من الرّوم نصرانى .

فقال له : أخبرنى عن أمّك ، ما هى ؟

قال : روميّة .

قال : فإنّى أصفها لك ، فبالله إن صدقت ، إلاّ صدقتنى .

قال : أفعل .

فأقبل الرّومى ، يصف أمّ الفتى ، ما خرم من صفتها شيئاً .

فقال له الفتى : هى كذلك ، فكيف عرفت أنّى ابنها ؟

قال : بالشبه ، وتعارفِ الأرواح ، وصدقِ الفراسة .

ثمّ أخرج إليه امرأة ، فلمّا رآها الفتى لم يشكّ فيها أنّها أمه لتقارب الشّبه ، وخرجت معها عجوز كأنّها هى ، فأقبلتا تقبّلان رأس الفتى ، ويديه ، وتترشّفانه .

فقال له : هذه جدّتك ، وهذه خالتك .

ثمّ اطّلع من حصنه ، فدعا بشباب فى الصّحراء ، فأقبلوا ، فكلّمهم بالرّوميّة ، فأقبلوا يقبّلون رأس الفتى ويديه ، فقال : هؤلاء أخوالك ، وبنو خالاتك ، وبنو عمّ والدتك .

ثمّ أخرج إليه حلياً كثيراً ، وثياباً فاخرةً ، وقال : هذا لوالدتك عندنا منذ سُبِيَتْ ، فخذه معك ، وادفعه إليها ، فإنّها ستعرفه ، ثمّ أعطاه لنفسه مالاً كثيراً ، وثياباً ، وحلياً ، وحمله على عدّة دواب ، وألحقه بعسكر مسلمة ، وانصرف .

وأقبل الفتى قافلاً حتّى دخل إلى منزله فأقبل يخرج الشىء بعد الشىء ممّا عرّفه الشّيخ أنّه لأمّه ، وتراه أمّه ، فتبكى ، فيقول لها : قد وهبته لك .

فلمّا كثر عليها ، قالت له : يا بنىّ ، أسألك بالله ، من أى بلد صارت إليكم هذه الثّياب ، وهل تصف لى أهلَ هذا الحصن الّذى كان فيه هذا ؟

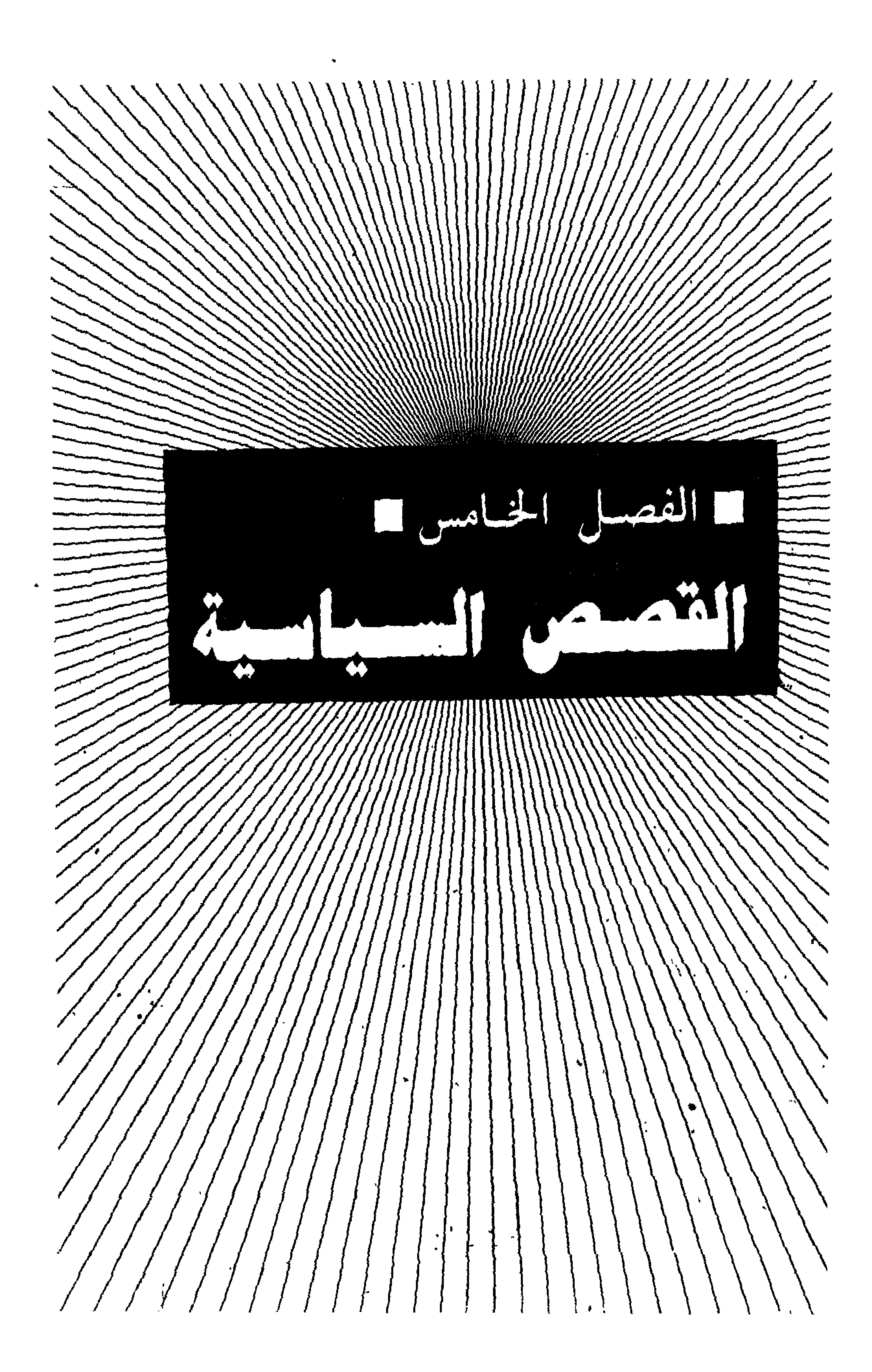
فوصف لها الفتى صفة البلد والحصن ، ووصف لها أمّها وأختها ، والرّجال الّذين رآهم ، وهى تبكى وتقلق .

فقال لها : ما يبكيك ؟

فقالت : الشّيخ والله والدى ، والعجوز أمّى ، وتلك أختى .

فقصّ عليها الخبر ، وأخرج بقيّة ما كان أنفذه معه أبوها إليها ، فدفعه إليها .

■ ■ ■



■ الفصل الخامس ■

القصص السياسية

● رسم حسام السكري

مــراكــز القــوى

كان في يد صاعد بن مخلد ضمانات كثيرة [1] ، وكانت معاملته مع أبي نوح عيسى بن إبراهيم [2] ، وكان صاعد من وجوه النّاس .

فحضر صاعد بين يدي أبي نوح ، يحاسبه في أموال وجبت عليه ، فجرت بينهما مناظرات ، فشتم فيها أبو نوح صاعداً ، فردّ عليه صاعد ، مثل ما قاله له .

فاستعظم الحاضرون ذلك ، واستخفّوا بصاعد ، وقالوا له : يا مجنون ، ما هذا الفعل ؟ قتلتَ نفسك ، ثمّ أقاموه ، وخلّصوه من أبي نوح ، وقالوا : هذا مجنون ، لم يدر ما خرج من رأسه .

فانصرف إلى منزله ، متحيّراً ، لا يدري ما يصنع فيما نزل به ، فحدّث أخاه عبدون [3] بما جرى .

فقال له : إن لم تطعني ، قبض عليك في غدٍ ، وطالبك من المصادرة بما لا يفي به حالك ، ولا حال جميع أهلك ، وقتلك ـ بلا شكّ ـ تشفّياً .

قال له صاعد : فما الرأي ؟

قال : كم عندك من المال ، واصدقني ؟ . قال : خمسون ألف دينار .

قال : أتطيب نفسك أن تتعرّى عنها ، وتحرس دمك ، وما يبقى من حالك وضياعك ؟ أم لا تسمح بذلك ، فتؤخذ منك تحت المقارع ، وتذهب النّفس والنّعمة كلّها ؟ .

فقال له : قد تعرّيت عنها ، كي تبقى نفسي .

قال : فادفع إليّ منها ثلاثين ألف درهم ، ففعل .

---

١ ـ الضمان : هو ان يتعهد الشخص بتسديد مبالغ مالية كبيرة للدولة نظير إطلاق يده في اراض او مصالح يديرها لحسابه .

٢ ـ يدل السياق على ان ابا نوح هذا هو المسئول عن ديوان الضياع أو الاراضي .

٣ ـ من طرائف هذا الخبر ما ذكره محقق الكتاب ان صاعدا وعبدون كانا نصرانيين ثم أسلم صاعد وبقي اخوه عبدون نصرانيا ، وحين فزع إليه فإنه اخلص له النصح وانقذه .

فحملها عبدون ، وأتى حاجب موسى بن بغا ، فقال له : خذ هذه العشرة آلاف درهم ، وأوصلنى إلى فلان الخادم ، وكان هذا خادمه الّذى يتعشّقه موسى ، ويطيعه فى كلّ أموره ، وموسى إذ ذاك هو الخليفة ، وكتبته كالوزارة ، والأمور فى يده ، والخليفة فى حجره [1] .

قال : فأخذ الحاجب ذلك ، وأوصله إلى الخادم ، فأحضره العشرين ألف درهم ، وقال : خذ هذه ، وأوصلنى إلى الأمير السّاعة ، وأعنّى عليه فى حاجة أريد أن أسأله أيّاها ، ومشورة أشير بها عليه ، فأوصله الخادم إليه .

فلمّا مثل بين يديه ، سعى إليه بكتابه ، وقال له : قد نهبوك ، وأخذوا مالك ، وأخربوا ضياعك ، وأخى يجعل كتابتك أجلّ من الوزارة [2] ، ويغلب لك على الأمور ، ويوفّر عليك كذا ، ويحمل إليك اللّيلة ، من قبل أن ينتصف اللّيل ، خمسين ألف دينار عيناً ، هديّة لك ، لا يريد عنها مكافأة ، ولا يرتجعها من مالك ، وتستكتبه ، وتخلع عليه .

فقال موسى : أفكّر فى هذا ؟ .

فقال : ليس فى هذا فكر ، وألحّ عليه .

فقال الخادم : فى الدنيا أحد جاءه مثل هذا المال ، فردّه ؟ وكاتب بكاتب ، فأجابه موسى ، وأنعم له .

فقال له عبدون : فتستدعى أخى السّاعة ، وتشافهه بذلك ، فأنفذ إليه ، فأحضره ، وقرّر عليه ذلك ، وبات عبدون فى الدّار لتصحيح المال ، فوفّاه .

وبكر صاعد ، فخلع عليه لكتابته ، وأركب الجيش كلّه فى خدمته ، وانقلبت سامراء ، بظهور الخبر .

فبكر بعض المتصرّفين إلى الحسن بن مخلد ، وكان صديقاً لأبى نوح ، فقال له : قد خلع على صاعد .

فقال : لأىّ شىء ؟

---

١ ـ هكذا بدأت رحلة البحث عن مركز قوة للاحتماء به من بطش صاحب ديوان الضياع الحاجب ، فالخادم الخاص بالملذات الشاذة ، فالقائد التركى المتسلط على الخليفة

٢ ـ يجعل ديوانك الخاص اعظم من دواوين الدولة .

فقال : تقلّد كتابة موسى بن بغا ، فاستعظم ذلك .

وركب في الحال ، إلى أبي نوح ، وقال له : عرفتَ خبر صاعد ؟ .

فقال : نعم ، الكلب ، قد بلغك ما عاملني به ، والله لأفعلنّ به ، ولأصنعنّ .

فقال له : أنت نائم ؟ ليس هذا أردت ، قد ولي الرّجل كتابة الأمير موسى ابن بغا ، وخلع عليه ، وركب معه الجيش بأسرهم إلى داره .

فقال أبو نوح : ليس هذا ما ظننته ، بات خائفاً منّا ، فأصبحنا خائفين منه ، فما الرّأى عندك ؟

قال : أن أصلح بينكما السّاعة .

فركب الحسن بم مخلد إلى صاعد ، فهنّأه ، وأشار عليه أن يصالح أبا نوح ، وقال له : أنت بلا زوجة ، وأنا أجعلك صهره ، وتعتضد به ، وإن كنت قد نصرت عليه ، فهو من تعلم موضعه ، ومحلّه ، ومحلّ مصاهرته ومودّته ، ولم يدعه ، حتّى أجاب إلى الصلح والمصاهرة .

فقال له : فتركب معي إليه ، فإنّه أبو البنت ، والزّوج يقصد المرأة ، ولولا ذاك لجاءك .

فحمله من يومه إلى أبي نوح ، واصطلحا ، ووقع العقد في الحال بينهما في ذلك المجلس .

■ ■ ■

من السجن إلى الوزارة

وحدّثني غير واحد من الكتّاب ، عمّن سمع أبا علي ابن مقلة ، لما عاد من فارس وزيراً ، يحدّث ، قال :

من طريف ما اتّفق لي في نكبتي هذه الّتي أدتني إلى الوزارة ، أنّني أصبحت وأنا محبوس مقيّد في حجرة من دار ياقوت ، أمير فارس ، وقد لحقني من اليأس من الفرج وضيق الصدر ما أقنطني وكاد يذهب بعقلي ، وكنّا ، أنا وفلان محبوسين ، مقيّدين ، في بيت واحد من الحجرة ، إلاّ أنّا على سبيل ترفيه وإكرام .

فدخل علينا كاتب لياقوت ، وكان كثيراً ما يجيئنا برسالته ، فقال : الأمير : يقرئكما السّلام ، ويتعرّف أخباركما ، ويعرض عليكما قضاء حاجة إن كانت لكما .

فقلت له : تقرأ عليه السّلام ، وتقول له : قد ـ والله ـ ضاق صدري ، واشتهيت أن أشرب على غناءٍ طيّب ، فإن جاز أن يسامحنا بذلك سرًّا ، ويتّخذ به منّة عليّ ويداً ، تفضّل بذلك .

فقال لي المحبوس الّذي كان معي : يا هذا ، ما في قلوبنا فضلٌ لذلك .

فقلت للكاتب : أدِّ عنّي ما قلت لك .

قال : السمع والطاعة ومضى ، وعاد فقال : الأمير يقول لك : نعم ، وكرامة وعزازة ، أيّ وقت شئت .

فقلت : الساعة .

فلم تمض إلاّ ساعة ، حتّى جاءوا بالطعام ، فأكلنا ، وبالمشامّ والفواكه والنبيذ ، وصفّ المجلس ، فجلست أنا والمحبوس الّذي معي في القيدين .

وقلت له : تعال ، حتى نشرب ، ونتفاءل بأوّل صوت تغنّيه المغنّية ، في سرعة الفرج ممّا نحن فيه فلعلّه يصحّ الفأل .

فقال : أمّا أنا فلا أشرب ، فلم أزل أرفق به حتّى شرب ، فكان أوّل صوت غنّته المغنّية :

تـواعد للبين الخليط لينبتّـوا وقالوا لراعى الذّود موعدك السّبت
ولكنّهم بانوا ـ ولم أدر ـ بغتةً وأفظع شىء حين يفجؤك البغت

فقال لى : ما هذا مما يتفاءل به ، وأىّ معنى فيه ، ممّا يدلّ على فرجنا ؟

فقلت : ما هو إلاّ فأل مبارك ، وأنا أرجو أن يفرّق الله بيننا وبين هذه الحالة الّتى نحن عليها ، وبين الفرج والصلاح ، يوم السبت .

قال : وأخذنا فى شربنا يومنا ، وسكرنا ، وانصرفت المغنّية ، ومضت الأيّام .

فلمّا كان يوم السبت ، وقد مضى من النّهار ساعتان ، إذا بياقوت قد دخل علينا ، فارتعنا ، وقمت إليه ، فقال : أيّها الوزير ، الله ، الله ، فى أمرى ، وأقبل إلىّ مسرعاً ، وعانقنى ، وأجلسنى ، وأخذ يهنّينى بالوزارة فبهتّ ، ولم يكن عندى علم بشىء من الأمر ، ولا مقدّمة له .

فأخرج إلىّ كتاباً ورد عليه من القاهر بالله ، يعلمه فيه بما جرى على المقتدر ، ومبايعة النّاس له بالخلافة ، ويأمره بأخذ البيعة على من بفارس من الأولياء ، وفيه تقليده أيّاى الوزارة ، ويأمره بطاعتى ، وسلّم إلىّ أيضاً ، كتاباً من القاهر ، يأمرنى فيه بالنّظر فى أموال فارس ، والأولياء بها ، واستصحاب ما يمكنى من المال ، وتدبير أمر البلد بما أراه ، والبدار إلى حضرته ، وأنّه استخلف لى ـ إلى أن أحضر ـ الكلوذانى .

فحمدت الله كثيراً ، وشكرته ، وإذا الحدّاد واقف ، فتقدّمت إليه بفكّ قيودى وقيود الرّجل ، ودخلت الحمّام ، وأصلحت أمرى وأمر الرّجل ، وخرجت فنظرت فى الأعمال والأموال ، وجمعت مالا جليلا فى أيام يسيرة ، وقررت أمور البلد ، واستصحبت الرجل معى إلى الحضرة ، حتى جلست هذا المجلس ، وفرّج الله عنّا .

■ ■ ■

فن اصطناع الأولياء

قال : دعا المأمون يوماً بأبي عبّادَ[1] ، فدفع إليه كتاباً مختوماً ، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة ، فيناظره على ما فيه باباً ، باباً ، ويأخذ تحت كلّ باب خطه فيه ، ويختمه بخاتمه ، وخاتم عمرو ، ويحتفظ به إلى أن يسأله عنه ، ولا يذكره ابتداءً ، وأكّد على ذلك .

قال : فعلمت أنّها وقيعة ، وقد كنت شاركت عمْراً في أشياء ، فصارت إلينا منها أموال ، فخفت أن تكون مذكورة في الكتاب .

فقصدت عمراً ، فوجدته في بستان أحمد بن يوسف ، يلعب بالشطرنج مع بعض أصحابه ، فعرّفته أنّي محتاج إلى الخلوة معه .

فقال : دعني الساعة ، فقد استوى لي هذا الدست ، (أي سينتصر في الدور) .

فضاق صدري ، وقلبت الشطرنج ، وقلت : قد سال السّيل ، وهلكنا وأنت غافل ، إقرأ هذا الكتاب ، نقرأه فطالبته أن يكتب خطّه ، تحت كلّ فصل منه ، بحجّته .

فضحك ، وقال : ويحك ، أما تستحي ، تخدم رجلاً طول هذه المدّة ، ولا تعرف أخلاقه ، ولا مذهبه ؟ .

فقلت : يا هذا ، أخبرني عنك ، إن أقدمتَ على جحد[2] ما في هذا الكتاب ، لتعذّر حجّة ما شاركتك فيه ، أمّا أنا فوالله ما أجحدُ ، ولكن أصبر لأمر الله تعالى .

قال : فتحبّ أن أطلعك على ما هو أشدّ عليك من هذا ؟ .

قلت : وما هو ؟ .

---

١ ـ ابو عباد من كتاب المامون ، وعمرو بن مسعدة من وزرائه .. وخلاصة ما جرى ان المامون استدعى كاتبه وقدم إليه كشفا بممتلكات الوزير وطلب منه ان يأخذ توقيعه عليها ، ويوقع إلى جانبه ، ويحتفظ الكاتب عنده بهذا الكشف ، ولا يبرزه إلّا إذا طلبه المامون .

٢ ـ الجحد : الإنكار .

فقال : كتاب دفعه إليّ أمير المؤمنين منذ سنة ، وأمرنى فيه بمثل ما أمرك فى هذا ، فعرفت ضيق صدرك ، فلم أذكره لك .

فكدت أموت إلى أن فرغ من كلامه ، فقلت له : أرنى إيّاه ، فأحضره ، وقرأته ، وأنا أنتفض ، وعمرو يضحك .

فلمّا فرغت منه ، قلت : عند الله أحتسب نفسى ونعمتى .

فقال : أنتَ والله مجنون .

فقلت : دعنا من هذا ، ووقّع تحت كلّ فصل .

فنظر إلى جملة ما نسب إليه فى الكتاب ، فوجده أربعين ألف ألف درهم ، فوقّع فى آخره : لو قصرت همّتنا فى هذا القدر وأضعافه ، لوسعتنا منازلنا ، وما يفى هذا ، بدلجة فى بردٍ ، أو روحةٍ فى حرٍّ ، وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، ويبلغنا فيه ما نؤمّله به ، وعلى يده [1] .

وكان جملة ما رفع علىّ ، سبعة وعشرون ألف ألف درهم .

فقال : يا هذا ، إنّ صاحبنا ليس ببخيل ، ولكنّه رجل يكره أن يطوى معروفه ، وإنّما أراد أن يعلمنا أنّه قد علم بما صار إلينا ، فأمسَكَ عنه على علم .

ثمّ ختم الكتاب بخاتمه ، وخاتمى ، وانصرفت وأنا فى الموت ، فلم ألبث أن كتبت وصيّتى ، وأحكمت أمرى ، وكنت سنة مغموماً ، وذاب جسمى .

فقال لى المأمون يوماً : يا أبا عبّاد ، قد أنكرت حالك ، أتشكو علّة ؟ .

فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين ، ولكنى منذ سنة ، حى كميت لأجل الكتاب الذى دفعه إلىّ أمير المؤمنين ، لأناظر عليه عمرو بن مسعدة .

فقال : أمسك عنّى ، حتى أعيد عليك جميع ما جرى بينكما ، فحدّثنى بجميع ما دار بيننا ، كأنّه كان ثالثنا .

فقلت : لقد استقصى لك الذى وكّلته بخبرنا ، والله ، ما خرم منه حرفاً .

فقال : والله ، ما وكّلت بكما أحداً ، ولكن ظنّاً ظننته ، وعلمت أنّه لا يدور

---

١ ـ هذا من اغرب الحجج التى يذكرها وزير للإثراء واستغلال النفوذ ، انه يبذل جهدا كبيرا ، ويعانى مشقة ، وانه يستطيع ان يكسب اكثر لو كان فى بيته . والعجب ان المامون قبل هذا المنطق ، وقبل الاستمرار فيه .

بينكما غيره ، ولقد عجبتَ من غير عجب ، لأنَّ عقول الرجال يدرك بعضها بعضاً ، وهذا عمرو بن مسعدة ، أعرف بنا منك ، وأوسع صدراً ، وأبعد همّة ، وما أردتُ بما فعلتُ ، إلاّ أن تعلما أنّي قد عرفت ما صار إليكما ، وتستكثرانه ، فأحببت أن أزيل عنكما غمّ المساترة ، وثقل المراقبة ، وأنّي لمتذمّم لكما ، خجل من ضعف أثري عليكما .

فسررت ، وحرت كأنّي أطلقت من عقال ، فشكرته ودعوت له .

ثمّ قلت : ما أصنع بذلك الكتاب ؟ .

قال : خرّقه إلى لعنة الله ، وامض مصاحباً ، آمناً ، في ستر الله عزّ وجلّ .

قلق الضمير

كان أحمد بن أبى خالد ، بغيضاً ، قبيح اللهجة ، وكان مع ذلك حرّاً [١] ، وكان يلزمه رجل متعطّل من طلاّب التصرّف يقال له : صالح بن علىّ الأضجم [٢] ، من وجوه الكتّاب ، فحدّث ، قال :

طالت بى العطلة فى أيّام المأمون ، والوزير ـ إذ ذاك ـ أحمد بن أبى خالد ، وضاقت حالى ، حتّى خشيت التكشّف [٣] .

فبكّرت يوماً إلى أحمد بن أبى خالد مغلّساً [٤] ، لأكلّمه فى أمرى ، فرأيت بابه قد فتح ، وخرج وبين يديه شمعة ، يريد دار المأمون .

فلمّا نظر إلىّ ، أنكر علىّ بكورى ، وعبس فى وجهى ، وقال : فى الدنيا أحد بكّر هذا البكور ليشغلنا عن أمرنا .

فلم تصبر نفسى أن قلت : ليس العجب منك ـ أصلحك الله ـ فيما استقبلتنى به ، وإنّما العجب منّى ، وقد سهرت ليلتى ، وأسهرت من فى دارى تأميلاً لك ، وتوقّعاً للصبح ، لأصير إليك ، فأبثّك أمرى ، وأستعين بك على صلاح حالى ، وإلاّ فعلىّ ، وعلىّ ، وحلفت يميناً غليظة ، لا وقفت ببابك ، ولا سألتك حاجة ، حتّى تصير إلىّ معتذراً ممّا كلّمتنى به .

وانصرفت مغموماً ، مكروباً بما لقينى به ، متندّماً على ما فرط منّى ، غير شاكّ فى العطب ، إذ كنت لا أقدر على الحنث ، وكان ابن أبى خالد ، لا يلتفت إلى إبرار قسمى .

---

١ ـ كان قاسيا متجهما ، ولكنه شريف الصفات ، يقدّر الشرفاء .

٢ ـ طلاب التصرف : الباحثون عن الوظائف .

٣ ـ التكشف : انكشاف الحال وظهور علامات الفقر .

٤ ـ وقت الغلس وهو حين يختلط ظلام آخر الليل باول النهار .

فإنّي لكذلك ، وقد طلعت الشمس ، إذ طلع بعض غلماني ، فقال : أحمد بن أبي خالد ، مقبل في الشّارع ، ثمّ دخل آخر ، فقال : قد دخل دربنا ، ثمّ دخل آخر ، فقال : قد وقف على الباب ، ثمّ تبادر الغلمان بدخوله الدهليز ، فخرجت مستقبلاً له .

فلمّا استقرّ به مجلسه في داري ، ابتدأت أشكره على إبراره قسمي ، فقال : إنّ أمير المؤمنين ، كان أمرني بالبكور إليه في بعض مهمّاته ، فدخلت إليه ، وقد غلبني الفكر ، لما فرط منّي إليك ، حتّى أنكر ذلك ، فقصصت عليه قصّتي معك .

فقال : قد أسأت بالرجل ، قم ، فامض إليه ، فاعتذر ممّا قلت له .

قلت : فأمضي إليه فارغ اليد ؟ .

قال : فتريد ماذا ؟ .

قلت : يقضي دينه .

قال : كم هو ؟ .

قلت : ثلثمائة ألف درهم .

قال : وقّع له بذلك .

قلت : فيرجع بعدُ إلى الدين ؟ .

قال : وقّع له بثلثمائة ألف درهم أخرى .

قلت : فولاية يشرّف بها .

قال : ولّه مصر ، أو غيرها ، ممّا يشبهها .

قلت : ومعونة على سفره ؟ .

قال : وقّع له بثلثمائة ألف درهم ثالثة .

قال : وأخرج التوقيع من خفّة ، بالولاية ، وبتسعمائة ألف درهم ، فدفع ذلك إليّ ، وانصرف .

■ ■ ■

خصم شريف

حدّثني عليّ بن عيسى ، وكان ضامناً لأعمال الخراج والضياع ببلده ، فبقيت عليه أربعون ألف دينار [1] .

وألحّ المأمون في مطالبته ، حتى قال لعليّ بن صالح ، حاجبه : طالبه بالمال ، وأنظره ثلاثة أيّام ، فإن أحضر المال قبل انقضائها ، وإلاّ فاضربه بالسياط ، حتى يؤدّيها أو يتلف .

وكانت بين عليّ بن عيسى وغسّان بن عبّاد عداوة ، فانصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه ، لا يقدر على شيء من المال .

فقال له كاتبه : لو عرّجت على غسّان ، وأخبرته بخبرك ، لرجوت أن يعينك على أمرك .

فقال : على ما بيني وبينه — (أي من العداوة والخصومة) .

قال : نعم ، فإنّ الرجل أريحيّ كريم .

قال : فحملته حاله على قبول ذلك ، فدخل إلى غسّان ، فقام إليه ، وتلقّاه بجميل ، ووفّاه حقّه .

فقال له : إنّ الحال الذي بيني وبينك ، لا يوجب ما أبديته من تكرمتي .

فقال : ذاك حيث تقع المنافسة عليه والمضايقة فيه ، والذي بيني وبينك بحاله ، والدخول داري حرمة توجب لك عليّ بلوغ ما ترجوه ، فإن كانت لك حاجة فاذكرها ، فقصّ كاتبه عليه قصّته .

فقال غسّان : أرجو أن يكفيه الله تعالى ، ولم يزد على هذا شيئاً .

فمضى علي بن عيسى آيساً من نفسه ، كاسف البال ، نادماً على قصده ، وقال لكاتبه لمّا انصرف : ما أفدتني بقصد غسّان إلاّ تعجّل المهانة والذلّ .

---

١ ـ نظام الضمان في العصر العباسي هو نفسه نظام الالتزام في مصر في عصر المماليك . يلتزم الضامن بدفع مبلغ للحكومة ، في نظير ان يسمح له بجبايته من الناس (الفلاحين) في منطقته . وكان الأثرياء يتهربون من الضمان والالتزام لما فيه من جور عليهم .

وتشاغل فى طريقه بلقاء بعض إخوانه ، وعاد إلى داره ، فوجد على بابه بغالاً عليها أربعون ألف دينار ، مع رسول غسّان بن عبّاد ، فأبلغه سلامه ، وعرّفه غمّه بما دفع إليه ، وسلّم إليه المال ، وتقدّم إليه بحضور دار المأمون من غد ذلك اليوم .

فبكّر على بن عيسى ، فوجد غسّان بن عبّاد قد سبقه إليها ، فلمّا وصل الناس إلى المأمون ، مثل غسان بن عبّاد بين الصفّين ، وقال : يا أمير المؤمنين إنّ لعلىّ ابن عيسى حرمة وخدمةً ، وسالف أصل ، ولأمير المؤمنين عليه سالف إحسان ، وقد لحقه من الخسران فى ضمانه ما قد تعارفه الناس ، وقد جرى عليه من حدّة المطالبة ، وشدّتها ، والوعيد بضرب السياط إلى أن يتلف ، ما حيّره ، وقطعه عن الاحتيال فيما عليه من المال ، فإن رأى أمير المؤمنين ، أن يجرينى على حسن عادته فى كرمه ، ويشفّعنى فى بعض ما عليه ، ويضعه عنه ، فعل .

قال : فلم يزل بهذا ونحوه ، حتى حطّه النصف ، واقتصر منه على عشرين ألف دينار .

قال غسّان : إن رأى أمير المؤمنين أن يجدّد عليه الضمان ، ويشرّفه بخلع .

فأجابه المأمون إلى ذلك .

قال : فيأذن أمير المؤمنين ، أن أحمل الدواة إليه ، ليوقّع بذلك ، ويبقى شرف حملها علىّ وعلى عقبى .

قال : افعل .

ففعل ، وخرج على بن عيسى ، والتوقيع معه بذلك ، وعليه الخلع .

فلمّا وصل إلى منزله ، ردّ العشرين ألف دينار ، إلى غسّان ، وشكره .

فردّها غسّان ، وقال : أنّى لم أستحطّها لنفسى ، وإنّما أحببت توفيرها عليك ، واستحططها لك ، وليس ـ والله ـ يعود شىء من المال إلى ملكى أبداً .

وعرف علىّ بن عيسى ، ما فعله معه غسّان ، فلم يزل يخدمه إلى آخر العمر .

■ ■ ■

ولى العهد فى السجن

حكى الخليفة المعتضد عن فترة ولايته للعهد قال :

لما ضرّب[1] إسماعيل بن بلبل بينى وبين أبى الموفّق ، فأوحشه منّى ، حتّى حبسنى الحبسة المشهورة ، وكنت أتخوف القتل صباحاً ومساءً ، ولا آمن أن يرفع إسماعيل عنّى ، ما يزيد فى غيظ الموفق علىّ ، فيأمر بقتلى .

فكنت كذلك ، حتى خرج الموفّق إلى الجبل ، فازداد خوفى ، وأشفقت أن يحدّثه عنّى إسماعيل بكذب ، فيجعل غيبته طريقاً إليه ، فلا يكشفه ، ويأمر بقتلى ، فأقبلت على الدعاء والتضرّع إلى الله ، والابتهال في تخليصى .

وكان إسماعيل يجيئنى فى كلّ يوم ، مراعياً خبرى ، ويرينى أنّ ذلك خدمة لى .

فدخل إلىّ يوماً : وبيدى المصحف ، وأنا أقرأ ، فتركته ، وأخذت أحادثه .

فقال : أيّها الأمير ، أعطنى المصحف لأتفاءل لك به ، فلم أجبه بشىء .

فأخذ المصحف : ففتحه ، فكان فى أوّل سطر منه : ﴿ عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون ﴾ ، فاسودّ وجهه ، واربدّ وخلط الورق .

وفتحه الثانية ، فخرج ﴿ ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين ﴾ .. إلى قوله : يحذرون ، فازداد قلقاً واضطراباً .

وفتحه الثالثة ، فخرج ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم ﴾ .

فوضع المصحف من يده ، وقال : أيّها الأمير ، أنت والله الخليفة ، بغير شكّ ، فما حقّ بشارتى ؟ .

---

١ ـ ضرّب (بتشديد الراء) اوقع واثار الخلاف . وهنا استطاع الوزير ابن بلبل أن يوقع بين الخليفة وابنه ، حتى حبسه .

فقلت : الله ، الله ، فى أمرى ، احقن دمى ، أسأل الله أن يبقى أمير المؤمنين ، والأمير الناصر ، وما أنا وهذا ؟ ومثلك فى عقلك ، لا يطلق مثل هذا القول بمثل هذا الاتّفاق فأمسك عنى .

وما زال يحدّثنى ، ويخرجنى من حديث ، ويدخلنى فى غيره ، إلى أن جرى حديث ما بينى وبين أبى ، فأقبل يحلف لى بأيمان غليظة ، أنّه لم يكن له فى أمرى صنع ، ولا سعاية بمكروه ، فصدّقته ، ولم أزل أخاطبه بما تطيب به نفسه ، خوفاً من أن تزيد وحشته ، فيسرع فى التدبير لتلفى ، إلى أن انصرف .

ثم صار إلى بعد ذلك ، وأخذ فى التنصّل والاعتذار ، وأنا أظهر له التصديق والقبول ، حتى سكن ، ولم يشك أنّى معترف ببراءة ساحته .

فما كان بأسرع من أن جاء الموفّق من الجبل ، وقد اشتدّت علّته ، ومات ، فأخرجنى الغلمان من الحبس ، فصيّرونى مكانه ، وفرّج الله عنّى ، وقاد الخلافة إلىّ ، ومكّننى من عدوّى إسماعيل بن بلبل ، فأنفذت حكم الله فيه .

■ ■ ■

أنت اليوم .. وأنا غداً

قال عبيد الله بن سليمان :

كنت بحضرة أبى ، فى ديوان الخراج بسرّ من رأى ، وهو يتولّاه - إذ ذاك - إذ دخل علينا أحمد بن خالد الصريفينى ، فقام له أبى قائماً فى مجلسه ، وأقعده فى صدره ، وتشاغل به [1] ، ولم ينظر فى عمل حتّى نهض ، ثمّ قام معه ، وأمر غلمانه بالخروج بين يديه .

فاستعظمت أنا ، وكلّ من فى الدّواوين ذلك ، لأنّ رسم [2] أصحاب الديوان ، صغارهم وكبارهم ، أن لا يقوموا فى الدّيوان لأحد من خلق الله عزّ وجلّ ، ممّن يدخل إليهم .

وتبيّن ذلك أبى فى وجهى ، فقال لى : يا بنىّ ، إذا خلونا ، فسلنى عن السّبب فيما عملته مع هذا الرّجل .

قال : وكان أبى يأكل فى الدّيوان ، وينام فيه ، ويعمل عشيّاً .

فلمّا جلسنا نأكل ، لم أذكّره ، إلى أن رأيت الطعام قد كاد ينقضى ، فقال لى : يا بنىّ شغلك الطعام عن إذكاري بما قلت لك أن تذكّرنى به ؟ .

فقلت : لا ، ولكن أردت أن يكون ذلك على خلوة .

فقال : يا بنىّ ، هذا وقت خلوة ، ثمّ قال : أليس قد أنكرت ، أنت والحاضرون ، قيامى لأحمد بن خالد ، فى دخوله وخروجه ، وما عاملته به ؟

فقلت : بلى .

---

١ - تفرّغ للاهتمام بالضيف .

٢ - الرسم : التقاليد الوظيفية ، او البروتوكول .

قال : كان هذا يتقلّد مصر ، فصرفته عنها [1] ، وقد كانت طالت مدّته فيها ، فتتبّعته ، فوطئت آثار رجل لم أجد أجمل منه آثاراً ، ولا أعفّ عن أموال السلطان والرعيّة ، ولا رأيت رعيّة لعامل أشكر من رعيّته له .

وكان الحسين الخادم المعروف بعرق الموت صاحب البريد بمصر ، من أصدق النّاس له ، وكان مع هذا من أبغض النّاس ، وأشدّهم اضطراباً في أخلاقه ، فلم أتعلّق عليه بحجّة .

ووجدته قد أخّر رفع الحساب لسنة متقدّمة ولسنّته الّتي هو فيها ، ولم يستتمّها لصرفي له عنها ، ولم ينفذه إلى الدّيوان ، فسمته أن يحطّ من الدّخل ، وأن يزيد في النّفقات والأرزاق ، ويكسر من البقايا ، في كلّ سنة مائة ألف دينار ، لأخذها لنفسي ، فامتنع من ذلك ، فأغلظت له ، وتوعّدته ونزلت معه إلى مائة ألف واحدة للسّنتين ، وحلفت بأيمان مؤكّدة ، أنّي لا أقنع منه بأقلّ منها [2] .

فأقام على امتناعه ، وقال : أنا لا أخون لنفسي ، فكيف أخون لغيري ، وأزيل ما قام به جاهي من العفاف ؟ .

فقيّدته وحبسته ، فلم يجب ، وأقام مقيّداً في الحبس شهوراً .

وكتب عرق الموت ، صاحب البريد ، إلى المتوكّل يضرّب عليّ ويحلف أنّ أموال مصر لا تفي بنفقتي ومؤونتي ، ويصف أحمد بن خالد ، ويذكر ميل الرّعية إليه ، وعفّته . .

فبينا أنا ذات يوم على المائدة آكل ، إذ وردت عليّ رقعة أحمد بن خالد ، يسألني استدعاءه لمهمّ يلقيه إليّ ، فلم أشكّ أنّه قد غرض [3] بالقيد والحبس ، وقد عزم على الاستجابة لمرادي .

---

١ - كان أحمد بن خالد واليا على مصر ، وفصل عن وظيفته ، وخلفه في الولاية سليمان بن وهب ، والد راوية الخبر .

٢ - هنا يعترف الوالي الجديد بانه حاول إكراه الوالي السابق على تزوير الدفاتر القديمة ليتمكن من سرقة نسبة من دخل الدولة .

٣ - ضاق صدرا .

فلمّا غسلت يدى دعوته ، فاستخلانى ، فأخليته ، فقال : أمّا آن لك يا سيّدى أن ترقّ لى ممّا أنا فيه ، من غير ذنب أذنبته إليك ، ولا جرم ، ولا قديم ذحل [1] ، ولا عداوة .

فقلت : أنت اخترتَ لنفسك هذا ، ولو أجبتنى إلى ما قد سمعتَ يمينى عليه ، لتخلّصت ، فاستجب لما أريد منك .

فأخذ يستعطفنى ، فجاءنى ضدّ ما قدّرته فيه ، وغاظنى ، فشتمته ، وقلت : هذا الأمر المهمّ الّذى ذكرتَ فى رقعتك أنّك تريد أن تلقيه إلىّ هو أن تستعطفنى ، وتسخر منّى ، وتخدعنى .

فقال : يا سيّدى ، فليس عندك الآن غير هذا ؟ .

فقلت : لا .

فقال : إذا كان ليس غير هذا ، فاقرأ يا سيّدى هذا .

وأخرج إلىّ كتاباً لطيفاً مختوماً فى ربع قرطاس ، ففضضته ، فإذا هو بخطّ المتوكّل [2] الّذى أعرفه ، إلىّ ، بالانصراف ، وتسليم ما أتولّاه إلى أحمد بن خالد ، والخروج إليه مما يلزمنى ، ورفع الحساب إليه ، والامتثال لأمره .

فورد علىّ ذلك أقبح مورد ، لقرب عهد الرّجل بشتمى له ، وأنّه فى الحال تحت مكارهى وحديدى ، فأمسكت مبهوتاً .

ولم ألبث أن دخل أمير البلد فى أصحابه وغلمانه ، فوكّل بدارى ، وجميع ما أملكه ، وبأصحابى ، وغلمانى ، وجهابذتى ، وكتّابى ، وجعلت أزحف من الصّدر ، حتّى صرت بين يدى أحمد بن خالد وهو فى قيوده .

فدعا أمير البلد بحدّاد ، ففكّ قيوده ، فمددتُ رجلّى ، ليوضع فيهما القيد ، فقال لى : يا أبا أيوب ، ضمّ أقدامك وثب قائماً ، وقال لى : يا أبا أيّوب : أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد ، ولا منزل لك فيه ، ولا صديق ، ومعك حرم وحاشية كبيرة ، وليس تسعك إلاّ هذه الدّار ـ وكانت دار العمالة ـ وأنا أجد عدّة مواضع ، وليس لى كبير حاشية ؟ ومن نكبة خرجتُ ، فأقم بمكانك .

---

١ ـ الذحل : الثار .

٢ ـ الخليفة المتوكل الذى اعاد الوالى المحبوس إلى منصبه فجاة .

وخرج ، وصرف التوكيل [1] عنّى ، وعن الدّار ، وأخذ كتّابى وأسبابى إليه .
فلمّا انصرف ، قلتُ لغلمانى : هذا الّذى نراه فى النوم ، انظروا من وكّل بنا ؟ .

فقالوا : ما وكّل بنا أحد . .

فعجبت من ذلك عجباً شديداً ، وما صلّيت العصر حتّى عاد إلىّ جميع من حمله معه من المتصرّفين والكتّاب والجهابذة ، وقالوا : أخذ خطوطنا برفع الحساب ، وأمرنا بالملازمة ، وأطلقنا ، فازداد عجبى .

فلمّا كان من الغد ، باكرنى مسلّماً ، ورحت إليه فى عشيّة ذلك اليوم مسلّماً عليه .

فأقمت على ذلك ثلاثين يوماً ، يغدو إلىّ ، وأروح إليه ، وربما غدوت أنا ، وراح هو ، وهداياه وألطافه تأتينى فى كلّ يوم من الفاكهة ، والثلج ، والحيوان ، والحلوى .

فلمّا كان بعد ثلاثين يوماً ، جاءنى ، فقال لى : قد عشقتَ مصر يا أبا أيّوب ، والله ما هى طيّبة الهواء ، ولا عذبة الماء ، وإنّما تطيب بالولاية والاكتساب ، ولو دخلتَ إلى سرّ من رأى ، لما أقمت إلاّ شهراً حتّى تتقلّد أجلّ الأعمال .

فقلت له : والله ، ماأقمتُ إلاّ توقّعاً لأمرك فى الخروج .

فقال : أعطنى خط كاتبك ، بأنّ عليه القيام بالحساب ، واخرج فى حفظ الله ، فأحضرت كاتبى ، وأخذ خطّه كما أراد ، وتسلّمه ، وقال : اخرج فى أىّ وقتٍ شئت .

فخرجت من غدٍ ، فخرج هو وأمير البلد وخاصّته ، ووجوه أهله ، فشيّعونى إلى ظاهر البلد ، وقال لى : تقيم فى أوّل منزلٍ على خمسة فراسخ ، إلى أن أزيح علّة [2] قائد يصحبك إلى الرّملة ، فإنّ الطّريق فاسد .

فاستوحشت من ذلك ، وقلت : هذا إنّما غرنى حتّى أخرج كلّ ما أملكه ، فيتمكّن منه فى ظاهر البلد ، فيقبضه ، ثمّ يردّنى إلىّ الحبس والتوكيل والمطالبة ، ويحتجّ علىّ بكتاب يذكر أنّه ورد عليه ثانياً .

---

١ ـ الحراسة الخاصة بقصد تقييد الحرية .
٢ ـ أتمكن من تجهيز قائد .

فخرجت ، وأقمت بالمرحلة الّتى أمر بها ، مستسلماً ، متوقّعاً للشرّ ، إلى أن رأيت أوائل عسكر مقبل من مصر .

فقلتُ لعلّه القائد الّذى يريد أن يصحبنى ، أولعلّه الّذى يريد أن يقبض علىّ به ، فأمرت غلمانى بمعرفة الخبر .

فقالوا : قد جاء أحمد بن خالد العامل بنفسه .

فلم أشكّ إلّا أنّ البلاء قد ورد بوروده ، فخرجت من مضربى ، فلقيته وسلّمت عليه ، فلمّا جلس ، قال : أخلونا ، فلم أشكّ أنّه للقبض علىّ ، فطار عقلى ، فقام من كان عندى ، ولم يبق غيرى وغيره .

فقال : أعلمُ أنّ أيّامك لم تطل بمصر ، ولا حظيتَ بكبير فائدة ، وذلك الباب الّذى سألتنيه فى ولايتك فلم أستجب إليه ، إنّما أخّرت الإذن لك فى الانصراف من أوّل الأمر إلى الآن ، لأنّى تشاغلت بالفراغ لك منه ، وقد حططتُ من الارتفاع [1] ، وزدتُ فى النّفقات ، فى كلّ سنة خمسة عشر ألف دينار ، تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار ، وهو يقرب ولا يظهر ، ويكون أيسر ممّا أردته منّى ذلك الوقت ، وقد تشاغلت به حتّى جمعته لك ، وهذا المال على البغال قد جئتك به ، فتقدّم إلى من يتسلّمه .

فتقدّمت بقبضه ، وقبّلت يده ، وقلت : والله ، قد فعلتَ يا سيّدى مالم تفعله البرامكة ، فأنكر ذلك ، وتقبض منه ، وقبّل يدى .

وقال : ها هنا شىء آخر أريد أن تقبله .

فقلت : وما هو ؟

قال : خمسة آلاف دينار قد استحققتها من أرزاقى ، فامتنعتُ من ذلك ، وقلت : فيما تفضّلت به كفاية .

فحلف بالطلاق ، أنّى أقبلها منه فقبلتها .

---

١ - اى زاد فى المصروفات ، وقلل فى الإيراد ، بما يسمح باقتناص جزء من المال العام لنفسه ، او للآخر ، وهكذا رضى طواعية بما لم يرض به كرها من قبل ، وفى الحالين هو سارق ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

ثمّ قال : وها هنا ألطاف من هدايا مصر ، أحببت أن أصحبك أيّاها ، فإنّك تمضي إلى كتّاب الدواوين ورؤساء الحضرة ، فيقولون لك : وليت مصر ، فأين نصيبنا من هداياها ؟ ولم تطل أيّامك ، فتعدّ لهم ذلك ، وقد جمعت لك منه ما يشتمل عليه هذا الثبت .

وأخرج إليّ درجاً فيه ثبت جامع لكلّ شيء في الدّنيا حسنٍ طريفٍ ، جليل القدر ، من ثياب دبيقيّ ، وقصب ، وخدم وبغال ، ودواب ، وحمير ، وفرش ، وطيب ، وجوهر ، حتّى أقلام ومداد ، ما يكون قيمته مالاً كثيراً .

فأمرت بتسلمه ، وزدت في شكره .

فقال لي : يا سيّدي ، أنا مغرم بحبّ الفَرْشِ ، وقد استعمل لي فرش بيت أرمنّي ، وهو عشر مصلّيات بمخادّها ، ومساندها ، ومساورها ، ومطارحها ، وبسطها ، وهو مذهب ، بطرز مذهبة ، قد قام عليّ بخمسة آلاف دينار ، على شدّة احتياطي ، وقد أهديته لك ، فإن أهديته للوزير عَبْدَكَ ، وإن أهديته للخليفة ملكته به ، وإن أبقيته لنفسك وتجمّلت به ، كان أحبّ إليّ .

قال : وحمله ، فما رأيت مثله قط ، ولا سمحت نفسي بإهدائه إلى أحد ، ولا استعماله ، وما ابتذلت منه شيئاً غير هذا الصّدر ومسنده ومساوره ، يوم إعذارك ، أفتلومني على أن أقوم لهذا الرّجل ، يا بنيّ ؟ .

فقلت : لا والله يا أبتِ ، ولا على ما هو أكثر من القيام ، ولو كان مستطاعاً .

فكان أبي بعد ذلك ، إذا صَرَفَ [1] رجلاً ، عامله بكلّ جميل ، ويقول : علّمنا أحمد بن خالد ، حسن الصَّرف ، أحسن الله جزاءه .

■ ■ ■

---

١١ ـ صرف رجلا : انهى عمله .

الاستخبارات الخاصة

حدّثني شيوخ الكتّاب :

أنّ القاسم بن عبيد الله الوزير ، لما انفرد بالوزارة بعد موت أبيه ، كان يحبّ الشرب ، واللّعب ، ويخاف أن يتّصل ذلك بالمعتضد[1] ، فيستنقصه ، وينسبه إلى الصبيانيّة ، والتهوّك[2] في اللّذات ، والتشاغل عن الأعمال ، وكان لا يشرب إلاّ في الأحايين ، على أخفى وأستر ما يمكنه .

وأنّه خلا يوماً مع جواريه ، ولبس من ثيابهنّ المصبغات[3] ، وأحضر فواكه كثيرة ، وشرب ، ولعب ، من نصف النّهار إلى نصف اللّيل ، ونام بقيّة ليلته ، وبكر إلى المعتضد على رسمه للخدمة ، فما أنكر شيئاً .

وبكر في اليوم الثاني ، فحين وقعت عين المعتضد عليه ، قال له : يا قاسم ، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك ، وألبستنا معك من ثيابك المصبّغات .

قال : فقبّل الأرض ، وورّى عن الصّدق ، وأظهر الشكر على هذا البسط ، وخرج وقد كاد أن يتلف غمّاً لوقوف المعتضد على هذا السّر ، وكيف رقي إليه ، وأنّه إذا لم يخف عليه هذا القدر من أمره ، فكيف تخفى عليه مرافقه[4] ، فجاء إلى داره كئيباً .

---

١ ـ احد الخلفاء الاقوياء من بني العباس .

٢ ـ التهوّك : مزيج من التهور والتهتك وهي تحمل معنيهما .

٣ ـ الملابس المزركشة المخصصة للعب واللهو .

٤ ـ المرافق : الرشاوى وما يشبهها .

وكان له فى داره صاحب خبر [١] جلد يرفع إليه الأمور ، فأحضره ، وعرّفه ما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ابحث لى عمّن أخرج هذا الخبر ، فإن فعلتَ ، زدتُ فى رزقك وأجزتك بكذا وكذا ، وإن لم تخرجه ، نفيتك إلى عمان . وحلف له على الأمرين .

فخرج صاحب الخبر من حضرته متحيّراً كئيباً ، لا يدرى ما يعمل فى يومه ذلك ، مفكّراً كيف يجتهد ويحتال ، فما وقع له رأى يعمل عليه .

قال صاحب الخبر : فلمّا كان من الغد ، بكرت إلى دار القاسم ، زيادة بكور على ما جرى به رسمى ، لفرط قلقى وسهرى تلك اللّيلة ، ومحبّتى للبحث .

فجئت ، ولم يُفتح باب دار القاسم بعد ، فجلست ، فإذا برجلٍ زَمِنٍ يزحف ، فى ثياب المكدّين [٢] ، ومعه مخلاة ، كما تكون مع المكدّين .

فلمّا جاء إلى الباب ، جلس إلى أن فتح ، فسابقنى إلى الدّخول ، فولع به البوّابون ، وقالوا له : أىّ شىء خبرك يا فلان ؟ ، وصفعوه ، ومازحوه ، ومازحهم ، وطايبهم ، وشتموه ، وشتمهم ، وجلس فى الدّهليز .

فقال : الوزير يركب اليوم ؟

قالوا : نعم ، السّاعة يركب .

قال : وأىّ وقت نام البارحة ؟

قالوا : وقت كذا وكذا .

فلمّا رأيته يسأل عن هذا ، خمّنت عليه أنّه صاحب خبر ، فأصغيت إليه ، ولم أُرِهِ أنّى حافل بأمره وهو يسأل ، إلى أن لم يُبْقِ شيئاً يجوز أن يعلمه البوّابون ، عمّن وصل إلى الوزير ، ومن لم يصل ، ومتى خرجوا ، إلاّ سألهم عنه ، وحدّثوه هم ، أحاديث أخرُ ، على سبيل الفضول .

---

١ - مخبر خاص .

٢ - الزمن : (بكسر الميم) العجوز الذى اضناه طول الزمن ، والمكدّ . الشحاذ .

ثمّ زحف فدخل إلى حيث أصحاب الستور ، فأخذ معهم في مثل ذلك ، وأخذوا معه في مثله .

ثمّ زحف فدخل إلى دار العامّة .

فقلت لأصحاب الستور : من هذا ؟

فقالوا : رجل زَمِنٌ فقير أبله طيّب ، يدخل الدّار يتصدّق[1] ويتطايب ، فيهب له الغلمان والمتصرّفون .

فتبعته إلى أن دخل المطبخ ، فسأل عمّا أكل الوزير ، ومن كان معه على المائدة ، وكلّ واحد يخبره بشيء ، ثمّ خرج يزحف ، حتّى دخل حجرة الشّراب ، فلم يزل يبحث عن كلّ شيء ، فيحدّث به ، ثمّ خرج إلى خزانة الكسوة ، فكانت صورته كذلك ، ثمّ جاء إلى مجلس الكتّاب في الدّيوان ، فتصدق ، وأقبل يسمع ما يجرى ، ويسأل الصّبيّ بعد الصّبيّ ، والحَدَث بعد الحَدَث ، عن الشيء بعد الشيء ، ويستخبر الخبر ، في كلّ موضع من تلك المواضيع ، ويستقيه ، ويخلط الجدّ بالمزح والتطايب بكلامه ، والأخبار تنجرّ إليه ، وتتساقط عليه ، والقطع والزلّات[2] تجيئه ، وهو يملأ المخلاة ، فلمّا فرغ من هذا ، أقبل راجعاً يريد الباب .

فلمّا بلغ الباب تبعته ، فخرج حتّى جاء إلى موضع من الخلد ، فدخل إليه ، فوقفتُ أنتظره ، فإذا هو بعد ساعة ، قد خرج شاباً بثياب حسان ، ماشياً ، بغير علة ، فتبعته حتّى جاء إلى دار بقرب دار الخادم الموكّل بحفظ دار طاهر ، فدخلها .

فسألت عنها ، فقالوا : هذه دار فلان الهاشمي ، رجل متجمّل .

فرصدته إلى وقت المغرب ، فجاء خادم من دار ابن طاهر ، فدقّ الباب ، فكلّمه من خوخة له ، ففتح له ورمى إليه برقعة لطيفة ، فأخذها الخادم وانصرف .

---

١ - يتصدق هنا بمعنى يطلب الصدقة .

٢ - الزلات : الصدقات .

فجئت ، فطلبت من الوزير غلماناً ، فسلّم إلىّ ما طلبت ، فبكرت فى السّحر إلى الدّار الّتى فى الخلد ، فإذا بالرّجل قد جاء بزيّه الّذى دخل به داره بقرب دار ابن طاهر ، فكبسته فى الموضع ، فإذا هو قد نزع تلك الثياب ، ولبس ثياب المكدّين الّتى رأيتها عليه أوّلاً .

فحملته ، وغطّيت وجهه ، وكتمت أمره ، حتّى أدخلته دار القاسم ، ودخلت إليه ، فقصصت عليه الخبر .

فلمّا فرغ القاسم منّ شغله ، استدعاه ، فقال له : اصدقنى عن أمرك ، أو لا ترى ضوء الدّنيا ، ولا تخرج من هذه الحجرة ـ والله ـ أبداً .

قال : وتؤمّننى ؟

قال :ـ أنت آمن ، فنهض لا علة به .

فتحيّر القاسم ، وقال له : خبرك ؟

فقال : أنا فلان الهاشمى ، وأنا رجل متجمّل ، وأنا أتخبّر عليك للمعتضد ، منذ كذا وكذا ، وأنزل فى درب يعقوب ، بقرب دار ابن طاهر ، ويجرى علىّ المعتضد فى كل شهر خمسين ديناراً ، فأخرج كلّ يوم من بيتى ، بالزىّ الّذى لا ينكره جيرانى فأدخل داراً فى الخلد ، بيدى منها بيت بأجرة ، فيظنّ أهلها أنّى منهم [1] ، ولا ينكرون تغيير الزىّ .

فأخرج من هناك بهذه الثّياب ، وأتزامن من الموضع وألبس لحية فوق لحيتى ، مخالفة للون لحيتى ، حتّى إذا لقينى فى الطريق ـ بالاتّفاق ـ بعض من يعرفنى ، أنكرنى .

فأمشى زحفاً من الخلد إلى دارك ، فأعمل جميع ما حكاه صاحب خبرك ، وأستقى أخبارك من غلمانك ، وهم لا يعرفون غرضى فيخرجون إلىّ من الأسرار ـ بالاسترسال ـ ما لو بذل لهم فيه الأموال ما خرجوا به .

ثمّ أخرج فأجىء إلى موضعى من الخلد ، فأغيّر ثيابى ، وأعطى ذلك الّذى اجتمع لى فى المخلاة للمكدّين ، وألبس ثيابى الّتى يعرفنى بها جيرانى ، وأعوذ إلى منزلى ، فآكل ، وأشرب ، وألعب ، بقيّة يومى .

---

١ ـ هذا يعنى ان اهل المنطقة من محترفى التسول والاحتيال .

فإذا كان المغرب جاءنى خادم من خدم دار ابن طاهر ، مندوب لهذا ، فأرمى إليه من روزنة [1] لى ، رقعة فيها خبر ذلك اليوم ، ولا أفتح له بابى .

فإذا كان بعد تسعة وعشرين يوماً ، جاءنى الخادم ، فأنزل إليه ، فأعطيه رقعة ذلك اليوم ، ويعطينى جارى ذلك الشّهر .

ولولا أنّى لم أر صاحب خبرك ، ولا فطنت له ، لما تمّ علىّ هذا ، ولو كنت لحظته لحظة واحدة ، ما خفى علىّ أنّه صاحب خبر ، ولكنتُ أرجع من الموضع الّذى أراه فيه ، فلا يعرف خبرى ، وبعد ذلك فإنّما تمّ علىّ هذا ، لأنّ أجلى قد حضر ، فالله ، الله ، فى دمى .

فقال له : اصدقنى عما رفعته إلى المعتضد عنّى ، فحدّثه بأشياء رفعها ، منها خبر الثّياب المصبّغة .

قال : فحبسه القاسم أيّاماً ، وأخفى أمره ، وأنفذنى إلى منزله ، وقال : راع أمرهم ، وأنظر ما يجرى .

فمضيت إلى داره الّتى وصفها بدرب يعقوب ، فجلست إلى المغرب ، فجاء الخادم ، فصاح به .

فقالت له الجارية : ما رجع اليوم ، وهذه لم تكن عادته قط ، وقد ـ والله ـ أشفقنا أن يكون قد حدث عليه حادث لا نعرفه . وقامت قيامتنا ، فانصرف الخادم ، وانصرفت .

وعدت أيضاً المغرب من الغد ، وجاء الخادم ، فقالوا له : قد ـ والله ـ أيسنا منه ، ولا نشكّ فى أنّه قد هلك ، والمأتم قد أقيم عليه فى منزل أبيه وعمومته .

فانصرف الخادم ، وجئت إلى القاسم بالخبر .

فلمّا كان من الغد ، ركب القاسم إلى المعتضد ، فحين رآه استدناه ، وسارّه ، وقال له : يا قاسم ، بحياتى ، أطلق الهاشمى المتزامن ، وأحسن إليه ، وأنت آمن بعدها أن أنصب عليك صاحب خبر ، ووالله لئن حدثت به حادثة ، لا عرفتُ فى دمه غيرك .

---

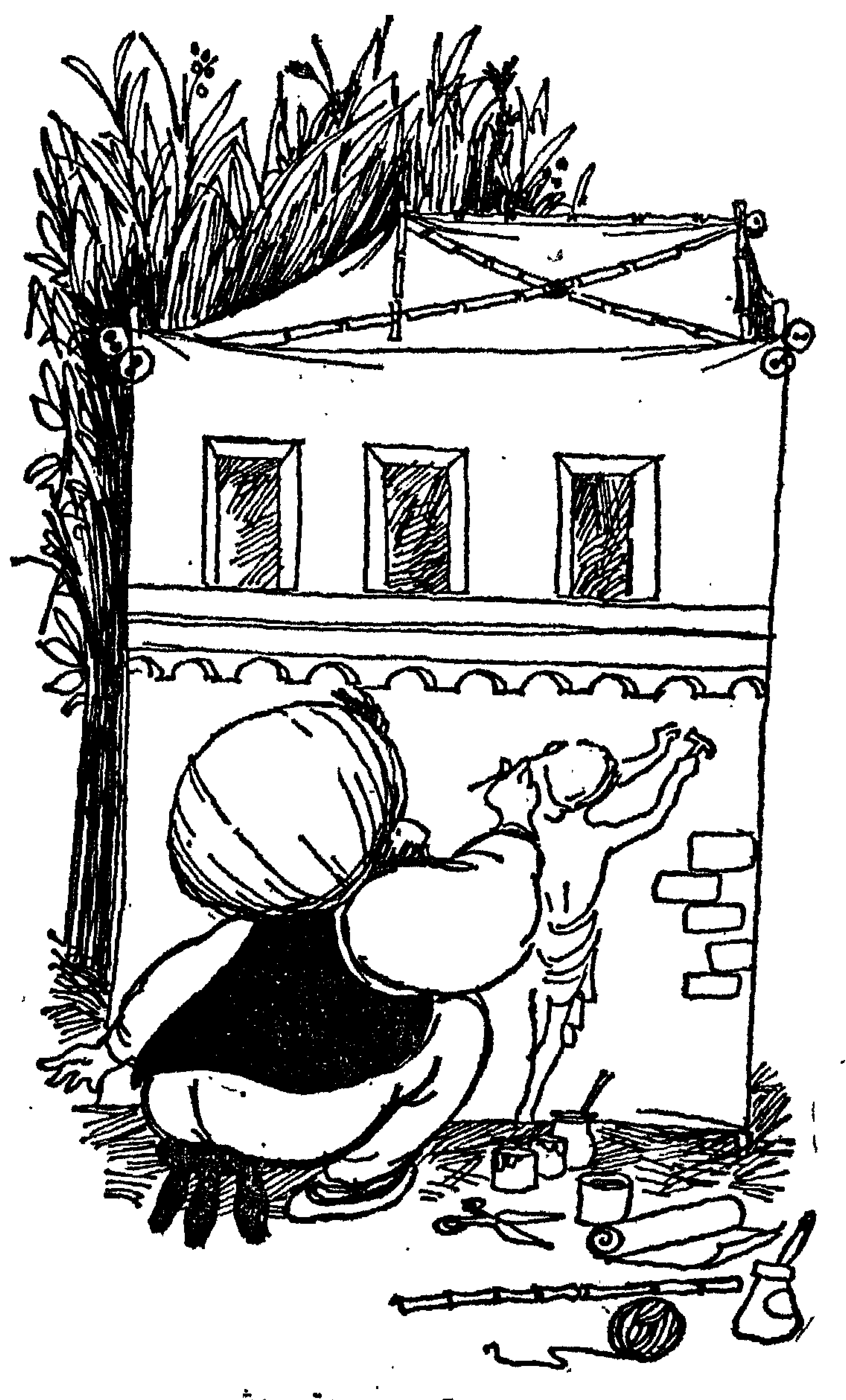
[1] ـ الروزنة : كوة او فتحة فى الجدار . فى ريف مصر : ناروزة .

فقبّل الأرض ، وتلجلج ، وانصرف ، فعاد إلى منزله ، وحمد الله إذ لم يعجل عليه بسوء ، وأخبرنا الخبر ، وجاء بالهاشميّ ، فخلع عليه ، ووصله بمال له قدر ، وصرفه .

وانقطعت أخباره عن المعتضد .

■ ■ ■





● رسم بيتر روش



● رسم بيتر روش

المحتـــوى

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق ٧٦٢٩ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى ٣ ـ٤ـ٠٠٦٤ ـ ٠٨ ـ ISBN ٩٧٧

كتاب اليوم
عدد نوفمبر

حكماء وادى النيل

■ دراسات فى الحضارة المصرية ■

بقلم
محمد العزب موسى

* ترقب صدوره *



سانتو
...؟
المنظف العملاق سانتـ
الوحيد الذى يغسل ويطهر ويعطى بياضا ناصعا وألوانا زاهية فى آ
انتجته بعد أبحاث علمية دقيقة شركة الاسكندرية للزيوت
طبعت بمطابع الأخبا
١٥٠ قرشا